كتاب الهلال

القصر المسحور

تأليف

طه حسين - توفيق الحكيم

سلسلة شهرية
تصدر عن دار الهلال

العدد
٧٤



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

شركة مساهمة مصرية

رئيس التحرير : طاهر الطناحى

العدد ٧٤ ـ شوال ١٣٧٦ ـ مايو ١٩٥٧

No. 74. — May 1957

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب

(المبتديان سابقا) القاهرة

المكاتبات

كتاب الهلال ـ بوستة مصر العمومية ـ مصر

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ـ مصر والسودان ١٠٠ قرش صاغ ـ سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا لبنانيا ـ السعودية والعراق والاردن وليبيا ١٣٠ قرشا صاغا ـ الامريكتين ٥ر٥ دولارات ـ سائر أنحاء العالم ١٧٠ قرشا صاغا

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

القصر المسحور

تأليف

طه حسين — توفيق الحكيم

دار الهلال

الاهداء

الى

التى كانت تشيع ذهابنا الى
القصر المسحور وتتلقى عودتنا
منه بنظرات حائرة وبسمات
ساخرة ولكن فيها مع ذلك
الرحمة والاشفاق والتشجيع
لانها تعرف كيف تحيي
زهرات الادب وتبعث نشاط
الادباء ... الى : مدام طه
حسين ... نرفع حديث
القصر المسحور

توفيق الحكيم وطه حسين

« سالنش ١٩٣٦ »

مقدمة

للدكتور طه حسين والاستاذ توفيق الحكيم

كلمة الدكتور طه حسين

هذا كلام لم يقصد به الى الجد فى ساعة من ساعات كتابته واملائه . وانما هو عبث استراح اليه صديقان فى أوقات فراغهما أثناء أسبوع أو اسبوعين فى قرية من قرى جبال الالب

التقى الصديقان فى هذه القرية ولم يكن لهما حديث الا سذاجة توفيق . وكان فى تلك الايام أشد سذاجة وأعظم يسرا مما يعرفه الناس الآن . كانت أحاديثه وأفعاله كلها تشعر بأنه لا يكاد يعرف ولا يحسن من شؤون الحياة والاحياء شيئا . وحسبك انه كان يقدر ان قمة الجبل الابيض لا ترتفع فى السماء أكثر مما يرتفع هرم من الاهرام . وكان يقول ذلك لرفاقه فى براءة لا تحفظ فيها ولا احتياط ولأمر ما ذكرت قصته شهرزاد وسئل عن بعض ما فيها فلم يحر جوابا .

ولم تكن هذه هى المرة الاولى التى أعلن فيها انه كتب هـذه القصـة ولكنه لايستطيع لها تأويلا • فاتخـذ الرفاق هـذا سبيلا الى دعابة طويلة وجـرت بينه وبينى أحـاديث كثيرة سجل بعضها فى هذا الكتاب

ولست أدرى كيف استجبت له حين ارادنى على نشر هذا اللغو واكبر الظن انى وجدت فى هذا النشر مضيا فى المعابثة التى ابتدأناها فى تلك القـرية من قرى الالب . وأكبـر الظن كذلك انى لم أر باسا بأن يعبث القراء بكاتبهم السـاذج كمـا عبثنا به . اما هو فالله يعلم لماذا أراد نشر هذا الكلام وكنت أظن ان ذلك الصيف البعيد قد مضى بمـا كان فيه من عبث وجد . ولكن الهلال تأبى دائما الا ان تورط الناس وتورطنى خاصة فى بعض ما اكره . وقد الحت فى نشر هذا الكلام فلم أجب وانما تركت ذلك لتوفيق ، وما أسرع ما استجاب توفيق كأنه أراد أن يستعيد ذكرى أيام عذاب مضت، وأراد من وراء ذلك أيضا شيئا آخر يسأل عنه هو ، ولا أذكره أنا لان الناس كلهم يكادون يعرفونه

وانا بالطبع اشـارك فى وزر هـذا العبث وتبعاته كلها لأنى كتبت شطرة وكتب توفيق شطره الآخر

ولكنى لا أحتمل تبعة نشره من جديد ، وانما يستأثر بهذه التبعة من لم يستطع أن يابى على الهلال

وقد قرأت هذا الكلام قبل اعادة نشره فرايته أهون شأنا وأقل خطرا من أن ينشر ، ولـكنى ذكرت به أياما كان الادباء

يعبثون فيها فلا يبتذلون قولا ولا رايا ولا يسفون فى لفظ ولا معنى ولا يمنعهم العبث من أن يخوضوا فى أشد مشكلات الادب تعقدا وأعمقها عمقا . وكان الناس يقرأون عبثهم ويقرأون جدهم ، فلا يضيقون بهذا ولا ينفرون من ذاك

ورايت اننا نعيش الآن فى ايام قد يضيق الناس فيها حتى بمثل هذا العبث الذى كنا نستريح اليه من الجد ونتخفف به من اعباء البحث . وكنت فى تلك الايام نفسها انفق أكثر النهار وشطرا من الليل فى املاء كتابى عن المتنبى ، فاذا فرغت الى شيء من الراحة بين املاء واملاء فى كتاب المتنبى أمليت هذه الصفحات أروح بها عن نفسى من أعباء الدرس الذى تكلفته لابى الطيب . وكان توفيق مشغولا بقصة لا أدرى ولا يدرى أحد ما هى لأنه يستخفى دائما بما يكتب ، ويؤثر أن يفجأ به الناس ولأمر ما لم ينشر قصته تلك الى الآن

فعسى أن يكون نشر هذا الكلام سبيلا الى ان يعلن تلك القصة التى كتبها وأخفاها منذ عشرين عاما

طه حسين

كلمة الأستاذ توفيق الحكيم

حقا ليس من اليسير أن تنشر بعد عشرين عاما هذه المعابثة بين صديقين ، دون التفكير فى وقعها على قراء اليوم

وصديقى وشريكى يحملنى التبعة فى الاستجابة لدارالهلال، ويلمح الى سبب « أسأل انا عنه ولا يذكره هو لأن الناس كلهم يكادون يعرفونه ! » النقود طبعا !

ما أيسر رد كل شىء يتعلق بى الى هذا السبب «المعقول» !

امرى الى الله ! ولكن اليس من « المعقول » أيضا أن تكون استعادة الذكرى لأيام عذاب مضت هى السبب الاهم ؟ أو السبب الوحيد ؟!

انى لا انسى ذلك الصباح البعيد ، يوم فتحت نافذة حجرتى فى الفندق ، فاذا أنا أمام جبل أشم متوج بالجليد ،كأنه مارد أشيب الرأس من مردة الجن فى الاساطير والقصص

ما كنت قد رأيت من قبل جبلا قط

فان رحلاتى الى أوروبا قبل ذلك كانت الى مدن • ولكن الجبل الابيض وأشجار البندق البرى فى سفحه قد ملأتنى

بفرحة ساذجة لايمكن أن أنساها • وما كل يوم يفرح الانسان تلك الفرحة ويدهش تلك الدهشة

مضى كل ذلك • ولم يبق لنا منه الا الذكرى • على أن الذى قد يهم القارىء اليوم فى هذه الصفحات هو تصوير أديبين ، أحدهما للآخر ، ذلك التصوير الباسم الساخر

وقد تنطوى السخرية أحيانا على بعض الصدق • وقد ينبع من العبث أحيانا بعض الجد

والقارىء الجاد يستطيع دائما أن يستخرج الجد فيما يقرأ من لغو

مثل هـذا القارىء الباحث هو الذى يدفعنا الى الاستجابة لنشر هذا الكلام ، دون تزمت أو تردد أو ندم فقد يعثر فيه على ضـــالة لم تكن فى الحسبان • وما أكثر ما تعثر على شىء وأنت تعبث فى التراب

توفيق الحكيم

سمیر شہزاد

« من مأمنه يؤتى الحذر » كذلك قالت حكمة القدماء ..
وأبت الظروف الا أن أكون أنا الدليـل الناصـع على صـدق ما قالت حكمة القدماء . فقد ضقت بالحيـاة العنيفة المفعمة بألوان النشاط المختلفة فى مصر حتى لم استطع لها احتمالا ، وحتى ضعف كل جسمى وانهدت لها قواى ، وعجزت لهـا اعصابى عن المقاومة فأصبحت سريع الغضب سريع الرضى ، سريع الانفعال بوجه عام حتى انكرت نفسى وانكرنى الناس ، ولم أر بدا من ان افر بما بقى لى من قوة العقل والجسم الى مكان بعيد اخلو فيه الى نفسى ، واستريح فيه من هـذه الجهود المتصلة واسترد فيه بعض ما انفقت من القوة ، حتى اذا استجمعت منه حظا لابأس به عدت الى مصر فأنفقته مرة اخرى فى غير تقصير ولا اقتصاد

من اجل هذا كله عبرت البحر ومررت بباريس مرا سريعا كأنه مر الطيف ، فلم يرنى الحى اللاتينى الا مرة او مرتين . ثم اويت الى هـذه القرية النـائية المنزوية فى عطف من اعطاف الجبل ، الى هـذه القرية التى لايعرفهـا المصريون ، والتى يمرون بها فى طريقهم الى المصايف المعروفة دون ان يخطر لهم الوقوف عندها او الاقامة فيهـا . واخترت مع اهلى فندقا متواضعا متوسط الحال لا تشـغل اهله هـذه

الحركات العنيفة التى تشغل المصطافين ولا يخطر لمصرى ان يأوى اليه ان الم بهذه القرية خطأ ، لان المصريين فى المادة اذا عبروا البحر لايأوون الا الى الفنادق الفخمة التى يكثر فيها الفرح والمرح ويظن بأهلها الغنى والثروة وتعود الترف والنعيم

□

ولما بلغت الفندق اكرهت صاحبى على ان يختار لنفسه او اخترت له انا غرفة فى الطابق الاعلى الذى لايصعد اليه احد الا الذين لايكلفون بالراحة ولا يشفقون من الجهد ، لان غرفة صاحبى اذا كنا فى اوربا هى فى الوقت نفسه الملجأ الذى الجأ اليه اذا اردت القراءة او الاملاء

وكذلك اعتقدت ، وكان لى الحق ان اعتقد ، انى قد امنت الضجيج والعجيج وضمنت الراحة والهدوء ، واعددت لنفسى ما انا محتاج اليه لاسترد النشاط من جهة ولاعوض الوقت الضائع من جهة اخرى ، فأقرأ كثيرا وأكتب قليلا

وانى لمع صاحبى ذات يوم قد خلونا الى ديوان من دواوين الشعر ننظر فيه وانقطعت الصلة بيننا وبين العالم الخارجى حتى ما نسمع هفيف الريح ولا حفيف الاغصان ولا غناء الطير ولا صياح الاطفال الذين يلعبون فى حديقة الفندق ، واذا الباب يطرق طرقا خفيفا لا نحفل به ولا نلتفت اليه ، نظن انه لايعنينا وانما يعنى الغرفة المجاورة ولكن الطرق يتصل ويلح ، ثم يشتد شيئا فشيئا ، ثم يضطرنى الى ان التفت ،

ويضطر صاحبى الى ان يضع الكتاب ثم يضطره الى ان ينهض فيفتح الباب ليرى ما دونه ، وكان قد اغلقه فأحكم اغلاقه ايثارا للعافية واغراقا فى التحفظ والاحتياط ، ولم يكد صاحبى يفتح الباب حتى رأى شخصا غريبا كان يقدر أن يرى كل انسان وان يرى كل شيء دون ان يراه . شخصا شرقيا فى زى اهل العراق لم يعرفه قط ، وهو من اجل ذلك ينكره اشد الانكار وينكر وجوده فى هــذه القرية المنعزلة ، وينكر اهتداءه الى هذا الفندق وصعوده الى هذا الطابق وطرقه باب هذه الغرفة .

وكان صاحبى مقتنعا بأن هذا الشخص قد اخطأ طريقه وجار عن سبيله وقصد الى غير مقصد ، ولكن الشخص يسأله عني ويدفع اليه كتابا يطلب منه ان يتلوه على . فيعود صاحبى الى حيران دهشا قد كاد يدركه الاختلاط لولا انه تعود مثل هذه المفاجآت منذ امتحنته الاحداث بمصاحبتى . فهو يفض الــكتاب ويقرأ على هذه الاسطر :

« سيدى

« علمت اليوم انك معتزل فى عطف من اعطاف هذا الجبل الذى اصطاف قريبا من قمته ، فنازعتنى نفسى الى ان اراك ، ثم دفعتنى نفسى الى رؤيتك دفعا لم اجد عنه مندوحة ، وكنت احب ان اســعى اليك حتى لا اكلفك مشــقة الحركة وجهد الانتقال ، ولــكنى آثرت ان تسعى الى حتى لا اكلفك مشقة هى اثقل على نفسك فيما اعتقد من المشقة الاولى لانها معنوية فانت تكره من غير شك ان تسعى ســيدة للقائك ،

وادبك يفرض عليك ان تسعى انت للقائها . واذن فانا اكتب اليك راجية ان تتفضل فتتهيأ للقائي ، ولكنى احب ان تعلم انى لا ازار الا حين منتصف الليل وان زيارتى لن تكلفك جهدا ولا عناء ، فاذا تقدم الليـــل وكاد ينتصف فانتظر متهيئـا للخروج . ولك ان تصطحب هذا الفتى الذى يلزمك لزوم الظل ان لم تر من اصطحابه بدا ، ولك ان تتركه ان كنت قد ضقت به كما تضيق بكثير من الناس وبكثير من الاشياء من حين الى حين ، فأنا اعرف من امرك ياسيدى اكثر مما تظن .. وتقبل تحية المشوقة الى لقائك))

شهر زاد

اظنك ايها القارىء العزيز غير محتـاج الى ان اصف لك ما ادركنى من الدهش وما ادرك صاحبى من الذهول ، ولكن دهشى وذهول صاحبى تجاوزا حدهما حين التفت صاحبى فلم ير الفتى العراقى الذى حمل الينـا الـكتاب ، وحين التمسه فى الفندق لم ير له اثرا ، وحين سأل عنه اصحاب الفنـدق ظهر له انهم لم يروه ولم يحسـوه ولم يعرفوا له خبرا ، وان احدا لم يسألهم عن مكاننا وانهم لم يدلوا احدا على هذا المـكان

كان الدهش والذهول ينتهيان بصاحبى وبى الى الجنـون او الى ما هو اكثر من الجنون ، وقد خيل الينا لحظة ان خيالا من هذه الخيالات التى تملأ الضمائر وتنكرها نفوسنا الشاعرة قد عبث بنا ، وان الذى اثار هذا الخيال هو حضور الاستاذ توفيق الحكيم الى قريتنا منذ يومين

فقد حضر صديقنا توفيق الحكيم الى هذه القرية فى قصة لعلك تظهر عليها وقتاما ، ومنذ انتهى الينا كثر الحديث بالطبع عن « اهل الكهف » ، و « شهر زاد » ، و « عودة الروح » وما يتصل بذلك كله من الادب والنقد والانتاج والتقصير ، وكل هذا العناء الذى فررنا منه الى فرنسا مقسمين ان نتجنبه اثناء الصيف . فخيل الى صاحبى والى ان كثرة الحديث فى الادب وفى ابطال توفيق الحكيم قد سحرت عقولنا وصورت لنا كل هذا القصص الذى عرضته عليك ، ولكن الكتاب كان بين يدى صاحبى يمسه بيديه ويراه بعينيه ويقرأ على ما فيه من الكلام

وجعلنا كلما تقدم النهار ودنونا من المساء اشتد اضطرابنا وامتلأت قلوبنا وجلا ورعبا حتى انكرنا خلطاؤنا واشفق على اهلى وخيل اليهم انى اتهيأ لعلة من العلل او للون من الوان الحمى

ولست اخفى عليك انى اجتهدت كما اجتهد صاحبى فى ان نخفى هذه القصة على من حولنا مخافة ان يظن بنا الجنون وان ندخل الروع على قوم آمنين

ومن عادتنا اذا رفعنا ايدينا عن طعام العشاء ان نمشى قليلا فى طريق من هذه الطرق الجبلية نستمتع بهذا الهواء الطلق الارج ثم نعود الى مخبئنا فنخلو الى كتبنا حتى يدعونا النوم الى ان نستريح . وقد جهدنا رغم ما كان يملأ قلبينا من هذا الخوف المتزايد من لحظة الى لحظة فى ان نجرى الامور كما تعودنا ان نجريها دون ان نغير شيئا مما الفنا

فلما آوينا آخر الامر الى غرفتنا الشاهقة فى السماء لم نقرأ صحيفة ولم نفتح كتابا ولم ننظر فى ديوان ، وانما لبثنا فيما كنا فيه من دهش وحيرة وذهول ننتظر أحد الخطرين . فاما ان يتحقق ما انبأنا به الكتاب واذن فالله وحده يعلم ما وراء ذلك ، واما ان يتكشف الامر عن لاشيء فينتصف الليل وكأننا لم نتسلم كتابا ولم نتلق دعوة ولم نتعرض لخطر ولم نحس خوفا ، واذن فهو الشر الذى ليس بعده شر ، هو الجنون الذى لايختص به فرد من الافراد وانما يشترك فيه اثنان

وهذه دقات احدى عشرة تنبئنا بأن انتصاف الليل ليس بعيدا وهذا العرق البارد يسيل على جبهتينا ، وها نحن هذان نتكلف الجلد ونأبى على اسناننا ان تصر وعلى فرائصنا ان ترتعد ولكن ماذا ! هذا الباب يطرق طرقا خفيفا ، ثم يفتح دون ان ناذن بالدخول ، ثم ... ونفيق واذا نحن فى مكان غير المكان الذى انفقنا فيه اول الليل ، ولكن الغريب اننا لا ننكر انفسنا ولا نحس خوفا ولا وجلا ولا نجد الا ما يجده الزائر لانسان ذى خطر من هذا التهيب اليسير الذى يشغله اثناء الانتظار ان يؤذن له

ولايطول هذا الانتظار وانما هو قصير جدا لايتيح لنا أن نتبين الغرفة التى ننتظر فيها ولا الاثاث الذى يحيط بنا.

فهذا باب يفتح فى جانب من جوانب الغرفة ، وهذه فتاة رشيقة انيقة تدخل منه مشيرة قائلة فى خفة وفى لهجة عربية فصيحة عذبة : « هل لهذين السيدين ان يتبعانى »

فنتبعها آمنين مطمئنين كما تعودنا ان نفعل فى مصر حين نزور من نزور من العظماء واشراف الناس . وهى تسعى بين يدينا رشيقة خفيفة الروح كأنما تمشى فى الهواء ونحن نتبعها متنقلين معها من غرفة الى غرفة ومن بهو الى بهو تصل الينا من بعيد انغام عذبة هادئة متصلة كأنها غناء الارواح ، ان كنا قد سمعنا غناء الارواح . ثم تنتهى بنا هذه الفتاة الحسناء الى استار ثقال فتقف لحظة مشيرة الينا ان سيدتها هنا وراء هذه الاستار . ثم تتقدم فتنحى سترا عن يمين وسترا عن شمال ، وتمضى خطوات ثم تنحنى محيية ثم تنحرف لنا عن الطريق ثم تنصرف وقد تركتنا مع شهر زاد

□

وشهر زاد تلقانا باسمة مبتهجة مشرقة الوجه طلقة الاسارير ولكنها لا تتحرك من مكانها وانما تشير الى صاحبى اشارة خفيفة ان ادنوا ، فدنونا واذا هى مستلقية على هذا الاثاث الذى يسمونه الكرسى الطويل ، قد كثرت من حولها الوسائد ووضعت قريبا منها مائدة صغيرة قد اثقلتها الكتب والصحف والمجلات . وهى تمنحنا يدا صغيرة رشيقة فاذا لثمناها اذنت لنا بالجلوس وابت الا ان يكون مكانى قريبا منها ، فنجلس ويتصل الصمت لحظات . ثم نسمع صوتا لا استطيع ان اشبهه الا بخرير الماء حين يتساقط هادئا نحيلا فى حوض من المرمر . واذا هذا الصوت الحلو النحيل البعيد يقول لى : لقد روعناك ياسيدى على غير انتظار منك لهذا

الخروج ، فمعذرة الَيك ولا تلم الا نفسك فقد كثر الحديث عنك وكثر ما قرات لك حتى اذا علمت بقربك منى لم اجد من لقائك بدا . قلت فى صوت مضطرب بعض الشيء ، عفوا ياسيدتى اين انا ومن تكونين ؟ اريد ان اعرف انائم انا ام يقظان ، فقد اختلفت على امور منذ اليوم اذهلتنى عن نفسى ، ولا اكاد ابلغ هذه الجملة حتى يتردد فى هذه الغرفة الواسعة ضحك نحيف حلو ، ثم تمس يدها الرشيقة الناعمة يدى الغليظة الخشنة فى رفق ويقول الصوت البعيد ، لابأس عليك ، لست نائما ولا حالما وانما انت يقظان حاضر الذهن ، وانت عند شهر زاد . شهر زاد ؟ الا تعرفها ؟ لقد طال ما استمعت لها ايام الصبى ، وقد طَال ما اشتغلت بها ايام الشباب ، وما اقرب ماكتبت عنها منذ عامين اثنين . قلت لاتعبثى ياسيدتى فلن تستطيعى ان تقنعينى ، ولكنها قطعت على حديثى قائلة بل استطيع ان اقنعك بما اشاء ، لقد ملأت قلبك صبيا وملأت عقلك شابا ، وما ينبغى ان تنحرف عنى حين ينحرف عنك الشباب . انك لتعلم حق العلم ان شهرزاد خالدة لم يدركها الموت ولن يبلغها الفناء ولن يتحول عنها شبابها . ما بالك تشك فى هذا الآن وقد كنت مؤمنا به حين كنت تقرأ كتاب هذا الشاعر العظيم المسكين الذى فارقنا منذ اسابيع . قلت : هنرى دى رينييه ؟ قالت : نعم ، لقد قرات كتابه وعرفت منه ان لى قصرا فى بغداد ، فوددت لو استطعت ان تطير الى هذا القصر وان تلقانى وتسمع منى وتتحدث الى ، فماذا يروعك وقد تحققت امنيتك ، فأنت فى

قصرى وهذه يدى فى يدك ، وانت تسمع حديثى وانا اريد ان اسمع حديثك

قلت ، وما شككت فى انى مريض قد اخذنى هذيان الحمى : فانا اذن فى بغداد فى القصر الذى وصفه هنرى دى رينييه ؟

قالت متضاحكة : كلا ، انت فى فرنسا قريب من قمة من قمم الالب . الم تقرأ كتابى هذا الصباح ؟ اليس من حق شهر زاد ان تصطاف كما يصطاف الناس ، ومن الذى قضى عليها ان تنفق الدهر سجينة فى قصرها السحرى القائم على شاطىء دجلة . لقد تغير الزمان وارتقت الحضـــارة واتيح لشهر زاد ان تسترد حريتها وان تطوف فى اقطار الارض فتصطاف فى جبال الالب وتشتو فى الريفيرا

قلت : وما يمنعك ان تنفقى الشتاء مرة فى مصر ؟

قالت : لاشىء ، لقد هممت بذلك فى الشتاء الماضي لولا هذا الفتى الغريب الذى تسمونه توفيق الحكيم ، هو الذى ردنى عن مصر بكتابه هذا الذى لم احبه ولا استطيع ان احبه

قلت متعجبا : لماذا ؟

قالت : لانه كشهريار لم يفهمنى وما اظنه سيفهمنى

قلت : وهل فهمك احد ؟

قالت : وما حرصكم على ان تفهمونى ؟ وما هذا المرض الذى افسد عليكم كل شىء فأغراكم بفهم كل شىء

قلت : مهلا ياسيدتى لا تغضبى ، فانى لم افهمك ولم احاول فهمك ولن احاوله ، لانك احب الى وآثر عندى واجمل

فى نفسى من ان امسك بهذا السوء الذى نسميه الفهم واستكشاف الحقائق

قالت وقد ملأها الرضى والابتهاج واستوت جالسة : لهذا احببت ان اراك لانك ترى مثل ما ارى وتؤمن بأن من فهم شيئا فقد قتله ، وتحب لى ان احيا فى نفسك فلا تحاول ان تقتلنى بالبحث عن حقيقتى والجد فىالانتهاء اليها . ولكنك لا تعلم من امرى كل شيء

قلت : ولا اريد ان اعلم من امرك كل شيء

قالت فى لهجة المتعبة المحزونة : شيء واحد احب انتعلمه حتى لايكون حبك لى اعجابا كله ، فقد يرضينى ان يكون فى هذا الاعجاب بى شيء من الاشفاق على

قلت : وما ذاك ؟

قالت فى تهالك وفتور : علة اخذت تعتادنى منذ حين ، هى ضيق الصدر الذى يلم بى اذا جن الليل فيحرمنى الراحة ويحول بينى وبين النوم . وليست فى الدنيا شهر زاد اخرى تستطيع ان تذود عنى هذا الضيق وتسلينى عن هذا الحرج وتقص على من القصص ما يدعو الى النوم كما كنت افعل انا مع شهريار فى سالف الازمان

قلت وقد اشرق وجهى وامتلأ قلبى بشرا وانطلق من فمى ضحك لم احس ملاحظته وتنظيمه واندفع فى جسمى نشاط لم استطع كبحه ، واذا انا ارفع يدها الرشيقة الناعمة الى شفتى فألثمها لثما متصلا وهى تلحظنى دهشة متعجبة

قلت حين عاد الى الهدوء : لاباس عليك ياسيدتى ، علة

طارئة لن تلبث ان تزول ، ساردها عنك منذ الليلة ، ساصف لك الدواء الذى يردها عنك آخر الدهر

قالت متلهفة : وكيف ذاك ؟ وما ذاك ؟ ماذا تقول ؟ اجاد انت ؟ اصادق انت ؟ لقد عهدتك مشغوفا بالمزاح ؟

قلت وقد عدت فأشبعت يدها لثما وتقبيلا ، والمزاح وحده شفاؤك من هذه العلة ياسيدتى ، فلأدعون اليك النوم من ليلتك هذه ، ولاعلمنك كيف تدعينه منذ غد

قالت : وكيف يكون ذلك ؟

قلت : ستتخذين لك سميرا

قالت مبتسمة فى شىء من السخرية : وستكون انت هذا السمير ؟

قلت محزونا : ليتنى اصلح لذلك ياسيدتى اذن اكون اسعد الناس

قالت : او لا تصلح انت لذلك ؟

قلت : كلا ياسيدتى ، انا أقل الناس حظا من الخيال واعجز الناس عن القصص ، واضيقهم بنفسى وبالوقت ، ولولا ان الله قد ملأ الدنيا كتبا واذن أنها ستظل أبدا مملوءة كتبا لما استطعت لهذه الحياة احتمالا

قالت : ومن لى اذن بهذا السمير ؟

قلت : وانا لك به ياسيدتى ، انه صديقك العزيز عليك ، الاثير عندك ، الحبيب اليك

قالت : اوجز

قلت : انه توفيق الحكيم وهو منك قريب ليس بينك وبينه

الا ما كان بينك وبينى من الامد حين كتبت الى ، انه فى الفندق الذى انا فيه

قالت وقد ملأها النشاط وأخذها الاهتمام وامتزج فى صوتها الغضب والفرح معا : هو اذن هنا هذا الآثم ، ليعلمن كيف تكون الكتابة عن شهر زاد

قلت : ولتعلمن انت ياسيدتى كيف يرضيك اذا اقبل النهار وكيف يسليك اذا اظلم الليل ، لو تعلمين كيف سقط على قريتنا هذه النائية المعتزلة سقوط الندى

قالت : كيف سقط على هذه القرية ؟

قلت : سبقته اليها البشائر بمقدمه السعيد ، لو رأيتنا والباب يطرق علينا طرقا عنيفا مع الصبح حتى اذا فتحنا للطارق رأينا ساعى البريد يحمل الينا كتابا مستعجلا من صاحبك ينبئنا فيه بمكانه من باريس ورغبته فى ان يلحق بنا ويسألنا ان نختار له فندقا يأوى اليه وغديرا يصطاد السمك فيه . وما نكاد ياسيدتى نفرغ من قراءة الكتاب حتى يطرق الباب علينا طرقا عنيفا فاذا فتحنا للطارق رأينا ساعية البرق تحمل الينا رسالة من صاحبك ينبئنا فيها بأنه قد ركب القطار ولم ينتظر رجع الجواب ، ونحن نلتمس له الفندق ونلتمس له الغدير ونلتمس له المواضع التى يجد فيها ادوات الصيد ، وهو يقبل مع المساء كما تعرفينه

قالت : ومتى عرفته ؟

قلت : الم تعرفيه من كتابه عنك

قالت : كيف اقبل عليكم ؟

قلت : اقبل كما ستعرفينه يقظان كالنائم ، حاضرا كالغائب وغائبا كالحاضر ، قد أخذ من باعة الصحف ما استطاع ان يأخذ ، واخذ من باعة الكتب ما استطاع ان يأخذ وقضى نهاره فى القطار بين الكتب والصحف مختلسا بين حين وحين نظرة من نافذة العربة ، مفتونا بما يرى ، حتى اذا اطمأن به المكان بيننا اخذ يتحدث فاذا هو دهش لكل شيء ، سائل عن كل شيء ، عارف بكل شيء جاهل بكل شيء ، يتحدث عن الجو ، ثم يثب الى مقالة قرأها فى هـذه الصحيفة ، ويتحـدث عن الجبل ثم يقفز الى فصل قرأه فى ذلك الكتاب ، يقبـل على الطعام ويأخذ فيه ولكنه مشغول بالنشاط الادبى فى مصر ، وبهذا الفصل الذى كتب عن ذلك المعرض الفنى فى باريس ، ثم يصبح مشغولا بالصيد مشغوفا به ، متهالكا عليه يلتمس له ادواته ويعدها ويهيئها ، وهو يفكر فيك وفيما آل اليه امرك ، وفى كتابه عنك وفى ترجمة هذا الكتاب الى الفرنسية وفيما يمكن اولا يمكن من تمثيل قصتك

قالت وقد نهضت مغضبة : ويل له ، أو يريد ان يظهرنى فى الملاعب ويعرضنى على النظارة ويسلمنى الى الممثلين ؟

قلت فى شيء من المكر : اظنه يطمع فى ذلك ياسيدتى

قالت : ليعلمن ماجزاء من يعبث بشهر زاد

قلت : لا تنغصى عليه راحته ، انه سـعيد راض مبتهج مغتبـط يزور الجبـال لاول مرة ، لو رأيت ابتهـاجه حين استكشف فى الغابة شجرة البندق . لقد كان يأكل البندق جافا ويأكله رطبا ، ويأكله صرفا ويأكله ممزوجا ، ويعرف انه

ثمر لشجر ، ولكنه لم يكن يعرف اين يكون ؟ ولا كيف يكون ذلك الشجر ؟ فلما رآه ورأى عليه ثمره لم يملك نفسه ابتهاجا واغتباطا . وما ارى الا انه سيكتب عن شجرالبندق فصـــلا او كتابا ، وما ارى الا انه سيحدث بين الشـــجر وثمره حوارا للديلا . لا تنغصي عليه راحته ياسيدتى ، لقد راى الثلج يغطى رؤوس الجبال لاول مرة ، وكان يقرأ ذلك فى الكتب ويسمع عنه فى الاحاديث وما كان يقدر انه سيراه ، فلما رآه لم يسع نفسه فرحا وسرورا ، واقسم لايطمئن ولا يستريح حتى يدنو منه ويتصل به ، ويملأ منه يديه ، ولو استطاع لاحتمل منه ذخيرة الى مصر

لا تنغصي عليه راحته ياسيدتى . لقد قرأ وصف الجبل الابيض حين كان تلميذا وطالبا ، وسمع اخباره من السائحين، ولم يخطر له قط ان الجبل الابيض شيء يرى ، فلما رآه كاد يخرج عن طوره ، لولا ان تمالك واصطنع الوقار ، وهو يقسم لنا جهد ايمانه ليصعدن فيه وليبلغن قمته ، فاذا صعبنا له ذلك قال فى براءة الصـــبى النقى : ماذا ؟ اليس يكفى ان اغدو اليه مع الصبح واعود منه حين ينتصف النهار فأدرك معكم الغداء ؟

□

وانا مندفع فى هذا الحديث عن صديقى الاديب وقد شغلت به بعض الشيء ولكن صاحبتى مغرقة فى ضحك متصل لايريد ان ينقضى قد ردها الى مكانها بين الوسائد لانها عجزت عن القيام فسكت عنها حينا حتى سكت عنها الضحك



الدكتور طه حسين يتحدث الى شهر زاد ويقول لها : « توفيق الحكيم معقد أشد التعقيد فاتخذيه لك سميرا »

واذا هی تسألنی : اهو من السذاجة بحيث تصف لی ؟
قلت : وما وصفت لك من سذاجته الا اقلها
قالت : فان كتابه يصوره معقدا اشد التعقيد
قلت : هو كذلك معقد اشد التعقيد ، فاتخذيه لك سميرا فستجدی عنده السذاجة المريحة حين تحتاجين الى الراحة ، والتعقيد المضنی حين تحتاجين الى الجد والتفكير
قالت : وسيجد عندی ما لم يعلم من امر شهر زاد
وكان الخدم قد اقبلوا يحملون الوانا من الطعام والشراب لا علم لنا بها ، فلما وضعوا ماكانوا يحملون وهموا ان ينصرفوا استوقفت احدهم ، وقالت له : فی الفندق الذی ذهبت اليه صباح اليوم مصری يقال له توفيق الحكيم فاذا كان الغد ، فانی اريد ان اراه
سمع الخادم امر سيدته فانحنی وانصرف
ولست فی حاجة الى ان اتم لك بقية ما كان بينها وبينی من حديث فما اظن ان ذلك يعنيك وانما هو يعنينی انا ويعنی شهر زاد ، وحسبك ان تعلم انی ودعتها آخر الليل وانها لمطمئنة النفس قد زال عنها الحرج وتهيأت لاستقبال ساعات نوم لذيذ . واصبحت التمس توفيق الحكيم فی غرفته وفی حديقة الفندق وعند غدير الصيد وفی مظانه من القرية فلا اجده . فأظن انه ذهب متنزها فی طريق من هذه الطرق الخضراء الفيحاء وانه سيعود الينا مع الظهر او مع المساء ، ولكنه لايعود مع الظهر ولا مع المساء ، فما اشك فی ان اعوان شهر زاد قد اختطفوه وفی انه سجين هناك فی ذلك القصر السحری القائم عند قمة هذا الجبل من جبال الالب

سجین شہرزاد

(شهر زاد تتمطى بجسمها المشوق
كالحسام بين وسائدها الحريرية)

شهر زاد : (للعبد القائم على رأسها) هل تم خطف توفيق الحكيم ؟

العبد : خطفناه يا مولاتى

شهر زاد : وماذا فعلتم به ؟

العبد : ألقيناه فى جب القصر المسحور

شهر زاد : (ضاحكة عن در منضد) هذا الساذج المعقد !

العبد : معقد ؟ ! هذا الرجل ؟ كلا يا مولاتى

شهر زاد : كيف ؟ ما ذا رأيتم ؟

العبد : انه السهولة بعينها . لم نكد نقبل عليه بسلاحنا حتى خلع فى الحال معطفه وعصب ببعضه رأسه واتقى ببعضه جسمه ، ثم انطرح على الارض فى هدوء رزين ، وجعل كأنه صريع قد أصيب ، وما وصلت اليه بعديد ، وما لمسته أصبع

شهر زاد : (باسمة) لقد كفى نفسه شر القتال

العبد : لما وجهتنا اليه يا مولاتى حسبنا انا سنلاقى هزبرا

شهر زاد : (ضاحكة) هزبر ؟ توفيق الحكيم ؟!

العبد : بل اكثر من هذا يا مولاتى . قد وجدناه يحمل ..

شهر زاد : كتابا ..

العبد : بل « سنارة » مما يستعمل فى صـــيد السمك الصغير . وقد علق « خطافها » بثيابه ، من الروع لمرآنا !

شهر زاد : (وهى تضحك) ألم تجدوا معه قلما وورقا ؟

العبد : كلا . .

شهر زاد : لم تجدوا معه غير « سنارة » صاد بها نفسه !!

العبد ــ بل انا يا مولاتى، لم نجد معه « طعما » مما يجتذب به السمك . ولم نجد معه سلة يضع فيها ما يصيد . كل ما معه ذلك العود من « الغاب » الذى لا نفع فيه ولا ضر

شهر زاد : (كالمخاطبة لنفسها) نعم . انى أعرف هذا الصنف من الرجال . انه لن يصطاد سمكة فى حياته ، ولا احسب أنه يذهب يوما الى بحيرة أو نهر او بحر . انما هو يخلق فى راسه كل الرغبات ، ويعد للوصول اليها المعدات ، ويغمر نفسه فى ذلك الجو الذى ابتدعه خياله . حتى اذا كان على بعد خطوة من التنفيذ والحقيقة ، انتهى حلمه ولم يعد يعنيه من الامر شىء

العبد : او مثل هذا الانسان نائم او يقظان ؟!

شهر زاد : (على الفور) انه نائم كاليقظان ويقظان كالنائم

العبد : مولاتى . . .

شهر زاد : مابك ؟

العبد : انك . . ترددين العبارة التى قالها هنا البارحة ذلك الرجل الذى كنت تنادينه بالدكتور

شهر زاد : (كمن يثوب الى نفسه) طه حسين !

العبد : من هذا الرجل ؟ انى أراه . .

شهر زاد : تكلم !
العبد : شديد الدهاء ..
شهر زاد : (باسمة) ماذا رايت من دهائه ؟
العبد : لست ادرى على التحقيق . انما فى كلامه وابتسامه شيء ينم عن سر مبهم وغرض خفى
شهر زاد : رح . انك لست أعرف منى بالرجال . ليس فى الامر سر ولا غرض . انما هذا الدكتور رجل صريح مستقيم، وقد اشار على بامور سأعمل بها
العبد : هو الذى أشار بخطف هذا الرجل المسكين !؟
شهر زاد : أيها العبد ! الزم مكانك ولا تعترض على
العبد : عفوا يا مولاتى وغفرا ! انك تعرفين اخلاصى وخضوعى . انها زلة لسان
شهر زاد : هذا الرجل المسكين انما هو مسكين حقا اذا تركناه حرا طليقا ، انما ينبغى ان نقتنصه ونحبسه فى هذا القصر المسحور لتزهر حياته ويبدو معدنه وتظهر قيمته
العبد : من هذا الذى لا تزهر حياته الا فى الحبس !
شهر زاد : انه ليس مثلك . انه خلق ليبقى الى جانبى يبادلنى الفكر
العبد : فهمت ، تريدين سميرا يؤانسك فى أوقات الضجر
شهر زاد : (كالمخاطبة لنفسها) نعم . انى الآن فى سأم دائم، لانى لا أجد ، بعد شهريار ، عقلا وخيالا يبهران عقلى وخيالى
العبد : ان الملك شهريار ذهب ولم يعد
شهر زاد : (كالمخاطبة لنفسها) نعم ، لقد أضعته انا ،

لقد كان حرا طليقا مرحا كالطفل فأوحيت اليه بأشياء كبرى مستحيلة ذهب يبحث عنها فلم يعد

العبد (كمن نسى نفسه) وقمر ، وانا .. كل الناس كانوا احرارا قبل أن يعرفوك !

شهر زاد : (تثوب الى نفسها) ماذا تقول ؟ اجننت ايها العبد ! أنت تخاطبني بهذا الكلام ؟ أنسيت ماقلت لك : ان الماضي قد مات ، واذا أردت ان تبقى حيا فكن خادما لا يذكر شيئا مما كان

العبد : غفرا يا مولاتي . انها كانت أيضا زلة لسان

شهر زاد : آه ! انى لفى ضجر . أو لم يعد عقلى قديرا على ان يوحي الى أحد بشيء ... ما هذا الشقاء !

العبد : أتأذنين ، أأحضر السجين بين يديك ؟

شهر زاد : نعم انه الآن كل رجائى

العبد : يا مولاتي . لا تضعى كل أملك فى هـــذا المخلوق المسكين ! انه غير قدير على صيد سمكة !

شهر زاد : ربما كان قديرا على صيد عقلى

العبد : حاشا أن يكون عقلك يامولاتي أهون اقتناصا من السمك !

شهر زاد : ايها الاحمق ! لا محل هنا لتلك المقارنة

العبد : ومع ذلك . الا تذكرين قول ذلك الدكتور

شهر زاد : ماذا قال ؟

العبد : قال البارحة ان هذا الانسان لم يفهمك قط ..

شهر زاد : سنرى

العبد : متى تريدين رؤية السجين ؟

شهر زاد : الآن

(يذهب العبد مسرعا .. وتبقى شهر زاد بلا حراك تفكر لحظة ، ثم تنهض فجاة وتتجه الى مرآة فى ركن مظلم ناء فى اقصى المكان ، وتأخذ فى اصلاح هندامها وتنظيم شعرهاوصبغ شفتيها وأظافرها ..)

العبد : (يعود وهو يقود توفيقا الحكيم بمعطفه الاسود و «سنارة» صيده) تقدم يا هذا !

توفيق : (للعبد) الى أين أيضا ؟!

العبد : قلت لك تقدم !

توفيق : (يتأمل ما حوله ويخاطب نفسه) اما انى خطفت فهذا لا شك فيه . نعم . ان صحت فراستى وصدقت فطنتى فأنا الآن مخطوف . (يستدرك متنبها لما قال) ما هذا الحمق ! اهو امر يحتاج الى فراسة وفطنة ان اعرف اين أنا الآن ؟ انى أكاد أجن جنونا . اخبرنى أيها الاسود ! (يتأمل العبد ويخاطب نفسه معجبا) ما اصلح هذا الاسود لتمثيل دور « العبد » فى قصتى « شهر زاد » ! .. (يمسك بذراع العبد) أخبرنى أيها ...

العبد : (يلمح مولاته مقبلة الى وسائدها فينهر سجينه) صه ! ..

توفيق : ماذا جرى ؟

العبد : (همسا) اركع !

توفيق : ماذا جرى ؟

العبد : (همسا) اركع !

توفيق : (لا يفهم) اركع ؟ لماذا ؟ لمن ؟

شهر زاد : (تبدو فى جمال وجلال ودلال) هذا انت ؟ !

توفيق : (يلتفت الى الصوت الموسيقى مشدوها لايتمالك ان يركع من تلقاء نفسه فى غير وعى) ؟

شهر زاد : (تبتسم راضية ثم تهمس الى العبد) اتركنا !

العبد : (ينصرف وهو يلقى على السجين الراكع نظرة استغراب لحاله واضطرابه) ؟

شهر زاد : (للسجين فى صوتها العذب) انهض !

توفيق : (ينهض وهو مطرق)

شهر زاد : (باسمة) عرفتنى ؟

توفيق : (فى صوت خافت ولم يزل عنه بعد أثر الدهش) نعم

شهر زاد : (معجبة مغتبطة) لا يدهشنى ذلك منك ، فانت عقل كبير وخيال واسع

توفيق : (ينظر اليها ولا يفهم عنها)

شهر زاد : لماذا تنظر الى هكذا ! الا تصدقنى ؟

توفيق : أ .. و .. تعرفيننى .. ياسيدتى ؟

شهر زاد : كيف لا . انى أعرفك كما تعرفنى . ولقد كان ينبغى ان يلقى احدنا الآخر .

توفيق : (لنفسه) ارجو ان ينتهى هذا اللقاء على خير !

شهر زاد : ما هذه النظرة الحيرى ! الا يسرك ان ترانى ؟

توفيق : (مندفعا بتأثير جمالها) بالطبع . انه لشرف عظيم

.. (ثم يتذكر فيستدرك :) كلا .. انه ليس كذلك

شهر زاد : (فى تقطيب) ماذا تقول ؟

توفيق : سيدتى ! لماذا أنا ههنا ؟

شهر زاد : (باسمة) انك جئت كى ترانى واراك

توفيق : فقط ؟ كلا يا سيدتى . فى الامر ولاشك غلط ! انا رجل من أهل مصر أضنانى التعب والجهد طوال اعوام قضيتها فى قراءة وكتابة واعمال رسمية بغير هدنة أو انقطاع، فجئت هذا الصيف الى جبال الالب للنزهة وراحة البال . لكن .. بينا أنا أسير الهوينا فى المساء فى ذلك الطريق المؤدى الى شامونيكس ، استنشق النسيم المعطر بأريج أزهار التفاح والبندق ، القائمة اشجاره فى الغابات الخضراء بسفح الجبل ذى القمة البيضاء . اذا رجال مدججون بالسلاح ..

شهر زاد : (باسمة) أعرف .. أعرف . ولقد قاومتهم أنت مقاومة الهزبر !

توفيق : فعلت ما استطعت ، ولكن الكثرة تغلب الشجاعة

شهر زاد : (تخفى ضحكها) صدقت ، ايها الشجاع !

توفيق : وبعد يا سيدتى ، متى يخلى سبيلى ؟

شهر زاد : (فى دلال) أبهذه السرعة مللتنا ؟

توفيق : أنت حقا على غاية اللطف والظرف والجمال ولكن

شهر زاد : ولكن ؟

توفيق : روحى الآن ولا شك بين يديك الصغيرتين . وانت الآن صاحبة الامر والنهى . فمرى رجالك بأطلاق سراحى وخذوا مالى وثيابى حلالا لكم

شهر زاد : (فى تقطيب) ما ظنك بى ؟ انك فيما أرى تجهل من أنا

توفيق : لا مع الاسف . لست استطيع أن أجهلك . ان معرفتك لا تحتاج الى فراسة ولا الى فطنة

شهر زاد : (فى ارتياب) من أنا ؟

توفيق : انت ولا فخر زعيمة الخطافين

شهر زاد : (فى خيبة مرة) أنا ؟ (كالمخاطبة لنفسها) أنا التى حسبت انه عرفنى ! صدق الدكتور . انه ليس ساذجا فحسب . انه أبله . !

توفيق : (يرى تغـــيرها) ماذا جرى ؟ اترينني غلطت يا سيدتى ؟

شهر زاد : لا

توفيق : أرى وجهك قد تغير

شهر زاد : يا لخيبة الامل !

توفيق : نعم . كنتم تحسبـون أنكم وقعتم على موسر من أصحاب الملايين الامريكان المصطافين . ولكن رجالك ياسيدتى قصار النظر اذ اختطفوا لك اديبا ، عامر الجيب لا بأوراق البنك بل ، بأوراق النثر !

شهر زاد : (ترفع راسها سريعا فى أمل) وهل انت حقا عامر الجيب بالنثر ؟

توفيق : لا نثر ولا شعر . تركت كل هذا فى مصر وجئت هنا للراحة والسكينة وفراغ البال (بعد لحظة) وأنت ما يعنيك من امر الشعر والنثر ؟

شهر زاد : هذا كل ما يعنينى . لقد اختطفتك لنثرك وفكرك

توفيق : (ساخرا) شىء جميل !

شهر زاد : ان شؤون الفكر والعقل والخيال هى كل حياتى

توفيق : انت ، يامن تخطفين الناس ليلا من الطرقات ! !

شهر زاد : انى لا أخطف الا الموهوبين أمثالكم

توفيق : (فى سخرية) استغفر الله !

شهر زاد : الا تصدق ؟ آه لو عرفت حقيقتى لصدقتنى من ساعتك ولكنك نائم كاليقظان ويقظان كالنائم . تمر بك الحقائق كأنها أشباح ، وترى الاشباح كأنها حقائق . أأنت واثق بأنك لم ترنى من قبل ؟

توفيق : واثق انك لم تشرفينى بالخطف قبل الآن ؟

شهر زاد : انظر الى عينى الصافيتين !

توفيق : انهما خضراوان كعيون القطط والسنانير !

شهر زاد : لقد شغفت بهما أنت يوما ، وكتبت عنى وعنهما كتابا

توفيق : أنا ؟ اين ومتى ؟ حاشا ان اكتب كتابا عن امراة أو عيون امراة

شهر زاد : انى امرأة لا ككل النساء

توفيق : حقيقة . لم أر مثل جمالك قط . ولو كنت ممثلة، لما صلحت امراة فى الوجود غيرك لتمثيل ذلك الدور العسير فى روايتى العسيرة . ولكنك امراة على الرغم من جمالها

لايعنيني الآن من أمرها شيء • فما جئت الجبل أطلب المغامرات انما اطلب الراحة والسكينة والصفاء

شهر زاد : الا استطيع ان ادخل حياتك فأثير ساكنها ؟

توفيق : وما حظك من اقلاق راحتي وصفوي ؟

شهر زاد : قد اوحي اليك بشيء

توفيق : اى شيء ؟

شهر زاد : قصة مثلا او كتاب

توفيق : هل اغراك احد بي ؟

شهر زاد : كلا . (بعد لحظة) هل تعرف طه حسين ؟

توفيق : انه يقيم معى فى فندق « مون جولى » بسفح الجبل . ماذا جرى له ؟ اخطف هو أيضا ؟

شهر زاد : (كالمخاطبة لنفسها) كلا . انه لا يحوجنا الى الخطف . انى اذا طلبته فى اى حين اقبل على دائما دون ابطاء . .

توفيق : وكيف عرفته ؟

شهر زاد : انى اقرأ كتاباته كلها منذ ان حمل القلم، واعرف كتبه « الايام » و « فى الصيف » و « على هامش السيرة » كما أعرف نفسي

توفيق : أمرك بدأ يدهشني . من أنت ! أطالبة من طالبات السوربون ؟

شهر زاد : انا ؟ الا تعرف من انا ؟

توفيق : قلت لك لم أنل بعد هذا الشرف

شهر زاد : ألم تسمع بامرأة تدعى « شهر زاد » ؟

توفيق : سمعت بها حقيقة
شهر زاد : سمعت بها فقط ! ! يالك من .. كيف أصفك !
توفيق : (يطيل النظر الى شهر زاد) أنت ! ؟
شهر زاد : عرفتنى حقا هذه المرة ؟
توفيق : (كالنائم اليقظان) هى !
شهر زاد : (فى صوت كالهمس) نعم . اما كنت تتوقع رؤيتى هنا ؟
توفيق : هى .. فى جبال سافوا العليا .! اهذا ممكن ؟ أهذا معقول ؟!
شهر زاد : انك تعرف انها تستطيع ان تكون فى كل مكان
توفيق : (كالمخاطب لنفسه) . « صورتها كانت تتبعك فى كل مكان .. »
شهر زاد : نعم ، هكذا قال شهريار عنى يوما لقمر
توفيق : عجبا ! انت اذن هى التى أوحت الى بكتابى . انت هى التى خرجت من عقلى وفكرى ! ومع ذلك ياشهر زاد .. تخطفيننى اليوم وتحبسيننى بين جدران هذا القصر الكبير ؟!
شهر زاد : (باسمة) وانت أيضا ، ألم تخطفنى وتحبسنى بين دفتى كتاب من القطع الكبير !؟
توفيق : آه تنتقمين اذن ! ولكنك قد اسرفت وغلوت . فأنت قد خطفتنى وحبستنى فى الواقع والحقيقة
شهر زاد : (فى ابتسامة غامضة) الحقيقة !
توفيق : هذا ما لا شك عندى فيه
شهر زاد : دع الحقيقة فى مكانها هادئة

توفيق : (ينظر اليها مليا) يا للعجب ! نعم انى قد عرفت الآن ابتسامتك الغامضة ! انت هى شهر زاد بلا مراء ، كما بدت فى مرآة فكرى لاول مرة . اتأذنين لى فى لثم يدك طويلا .؟

شهر زاد : (باسمة وهى تمد يدها) طويلا ! انكم معشر الادباء سواء !

توفيق : هل أطال أديب غيرى لثم يدك ؟

شهر زاد : (كالمخاطبة لنفسها) البارحة فى منتصف الليل!

توفيق : ماذا تقولين ؟

شهر زاد : (تلتفت اليه فجأة) اسمع منى ! اتعرف لماذا طلبتك ؟

توفيق : لا

شهر زاد : آه !. ما احوجنى اليوم الى سمير يبقى الى جانبى يزيل عنى السأم !

توفيق : أنا ؟!

شهر زاد : ولم لا ؟

توفيق : او لم تجدى فى هذا الخلق من يصلح غيرى لهذا المنصب الخطير !

شهر زاد : ليس فى الوجود غيرك . لقد دلنى عليك صديق أثق بحكمه وذوقه ورأيه

توفيق : أهو صديق لك أم لى ؟

شهر زاد : لكلينا

توفيق : ان صدقت فطنتى وفراستى فهو طه حسين ، اسمعى أيتها الجميلة ! لقد لعب بك هذا الصديق الذى تثقين

بحكمه وذوقه ورأيه . فأنا آخر من يصلح لمسامرة الملكات الضجرات فى ليالى الصيف المقمرات !

شهر زاد : سنرى

توفيق : المسألة لاتحتاج الى تجربة . انى رجل جئت من مصر طلبا للكسل وبحثا عن راحة البال

شهر زاد : سمعت هذه العبارة منك ألف مرة ومرة !

توفيق : سيدتى العزيزة ! لو سألتك أمنية غالية

شهر زاد : كل أمنية لك مجابة مهما غلت

توفيق : اريد ان تتركينى أتثاءب

شهر زاد : الا هذه . أنت ما خلقت لهذا

توفيق : آه ! كم اضيق الآن ذرعا بهذا الصنف من النساء !

شهر زاد : اتسمع نصحى ؟ اذعن لما كتب عليك . ولاتكن عنيدا كشهريار فى أول امره . انك باق الى جانبى تسامرنى رضيت او أبيت . فلا تضطرنى الى العنف والاكراه

توفيق : العنف ! كلا ، لا لزوم للعنف بعد الآن . كفى ما حصل من خطف وقبض وسجن . اسامرك وامرى لله ! (كالمخاطب لنفسه) ولكن الله يتولى جزاءك يامن أغريت بى وحرضت على

شهر زاد : (تستلقى على الوسائد وتضع راسها فى راحتيها) الآن حدثنى عن اثر جبال الجليد فى نفسك ، وعن الغابات الخضراء . وعن ثمر البندق . هل حقا استكشفته وأكلته بقشره ؟ !

توفيق : يحدثك عن كل هذا الذى اخبرك به . فهو قدير

على وصف ذلك بالابداع الذى وصف به جبال « الفوج » فى كتابه « فى الصيف » وانت تعرفينه كما تعرفين نفسك !

شهر زاد : ولكنى اريد ان اسمع منك انت ما حدث لك

توفيق : ماذا حدث لى ؟ لقد نسيت

شهر زاد : الا تريد أن تقص على ؟ !

توفيق : (فجأة) صه ! قد خطرت لى فكرة نورانية . أتريدين قتل الضجر ؟ عندى له دواء ناجع . هلمى بنا

شهر زاد : الى أين ؟

توفيق : الى البحيرة . هذه « سنارتى » وآتى لك «بسنارة» ثم نذهب معا نصطاد سمكا .. من سمك « الترويت » الذى تعج به البحيرة والجداول المنحدرة من الجبال

شهر زاد : انا اصطاد سمكا ؟ !

توفيق : وما الضرر ؟

شهر زاد : اهذا رأى تراه لى ؟ ! يالك من .. ماذا اقول لك ؟

توفيق : انى لا ارى فى ذلك سبة . لقد كان ابوك صيادا

شهر زاد : ابى !

توفيق ـ لقد قرات ذلك بعينى فى نسخ عدة من كتاب الف ليلة وليلة

شهر زاد : انك قد جاوزت حدك يا هذا

توفيق : صدقت . وانى لا استحق منك الآن غير الطرد خارج هذا القصر

شهر زاد : انى لست بلهاء فأفعل ذلك . انك باق هنا كى تسامرنى .. هلم .! سامرنى !

توفيق : لا حول ولا قوة الا بالله !

شهر زاد : ان كنت لا تجد من الحقائق معينا فاين الخيال! هل نضب خيالك هكذا وشيكا ؟ !

توفيق : يظهر لى انه نضب

شهر زاد : واخجلاه ! هذا مؤلف وروائى واديب يعجز من مسامرتى ليلة واحدة . وانا التى سامرت ملكا جاهلا غشوما الف ليلة وليلة !

توفيق : كلنا نعرف لك هذه العبقرية

شهر زاد : كنت احسبك تستطيع ان تستنبط لى شيئا يسحر لبى !

توفيق : انى استطيع شيئا

شهر زاد : ما هو ؟

توفيق : استطيع ان أصغى اليك . تكلمى انت واستنبطى ماشئت وانا أصغى

شهر زاد : هذا بديع ! اخطفتك وجئت بك الى هنا كى أسامرك أنا ؟ !

توفيق : انك خلقت كى تتكلمى انت

شهر زاد : ماذا تقول ؟

توفيق : اقول ان كل عملك فى الوجود ان تتكلمى فيصغى اليك الناس . لا كل الناس . بل المجدودون والموهوبون !

شهر زاد : صدق طه حسين . انك معقد ! بل أكثر من معقد . انك خبيث !

توفيق : وطه حسين ! أهو البراءة بعينها ؟ الا تعرفين أنه مكر بك مكرا جميلا

شهر زاد : كيف ذلك ؟

توفيق : انه هو الذى كان يستطيع ان يسامرك ابدع المسامرة. ولكنه مشغول ليله ونهاره « بالمتنبى » ولقد اغراك بى ليفلت هو ويخلص الى شاعره . وهكذا آثر « المتنبى » على «شهر زاد » . .

شهر زاد : اهو فعل هذا ؟

توفيق : (منتصرا) عليك به ! وخطفه هين سهل . فهو يجلس حينا بمفرده يفكر تحت شجرة الزيزفون الكبيرة فى حديقة الفندق ، واحيانا يجلس معه صاحبه « فريد » يقرأ له . ولا جناح ولا تثريب فى خطفهما معا



من شهرزاد ...

سمعت شهرزاد من أسيرها هـذا الاغراء فرفعت كتفيها الجميلتين رفعا رفقا أنيقا لا يكاد يحس وقالت فى سخرية لم يلحظها الأسـير الأديب « راى موفق » . ثم تناولت قضيبا دقيقا من العاج فمست به اناء أجوف من الفضـة سمع له صوت فيه عذوبة وخفاء ، وانفرجت له أسـتار جانبيه من القطيفة المقصبة ، وخرج من بين هذه الأستار ثلاث فتيات حسان قد اعتدلت قاماتهن أجمل اعتدال وصورت وجوههن احسن تصوير ، تقدمن فى خطى متزنة متقاربة حتى اذا دنون من سيدتهن انحنين فأطلن الانحنـاء ، ثم اسـتوين فأحسن الاستواء والأسير قائم ذاهل يردد طرفه الحائر بينهن وبين سيدتهن لا يفهم شيئا ولا يقول شيئا ، وشهرزاد تنظر اليه وعلى ثغرها ابتسامتها الغامضة وتقـول له فى صوت تملؤه الأناة والمكر والدهاء والشعور بقوة الملك والسلطان معا « لا يزغ بصرك يا سيدى ولا تسرع اليك الفتنة فأنك لم تتجاوز بعد أول الطريق »

ويختلط الأمر على الأسير فيذهب عنه ما كان قد أظهر من تجلد واصطنع من وقار ، ويسوؤه أن قد نفذت شهرزاد الى نفسه فرأت اضطرابه وتردده وحيرته بين هذا الجمال الخالد الذى استقر بين الوسائد الحريرية ، والذى كان يحـاوره منذ حين ، وهذا الجمال الرائع الذى انفرجت عن الأستار ،

ويهم أن يجمجم معتذرا ، ولكن شهرزاد تخفف عليه الأوونة وتضع عنه الوزر ، وتتجه الى هؤلاء الفتيات الحسان قائلة :

خذن هذا السيد ، فأصلحن من أمره وهيئنه لمسامرتى ، ثم عدن به الى اذا صار لها أهلا . . !

هنالك يطيش لب الأسير ويغيب رشده ويفارقه صوابه ، فيسأل بماذا تأمرين يا سيدتى ! وماذا تريدين أن يصنع بى ! والى من تسلميننى ؟! . .

فتجيبه شهر زاد مبتسمة فى شيء من القسوة ، ألم تنظر الى المرآة ؟ ألم تر أنك أشعث أغبر ؟ اتظن أنك على هذه الحال الرثة تصلح لمسامرة الملوك ؟

قال الأسير :

سيدتى انى لا أصلح لشيء ولم أطلب شيئا الا أن أرد الى حيث كنت واعود حرا طلقا أطوف فى المسالك والطرقات حول سالنش وألتمس غديرا أصطاد فيه السمك

قالت : ولكن الله أراد لك أن تمسى لى سميرا

قال : وأنت تسلميننى الى هؤلاء الفتيات الحسان فماذا تريدين أن يصنعن بى ؟

قالت : يصلحن من أمرك ويزلن عنك ما ركبك من الغبار وما علاك من شعث ، يجرين المشط والمقص على رأسك ، وينزهن الموسى فى لحيتك هذه، ويأخذن من أظافرك ويبدلنك من ثياب المدينة هذه ثياب القصر ، ثم يردونك الى سمحا طلقا لا تقتحمك العين ، ولا يتجافى الطرف عن النظر اليك

قال مرتاعا : وهن اللاتى سيصنعن بى هذا كله ؟

قالت : وما يسوءك من ذلك

قال : ما أعرف والله ما يسوءني مما يسرني ، ولكني أتوقع يوما كيوم بفنوس

قالت : في قصة اناتول فرانس لقد ألهمته هذه القصة في ساعة من ساعات فراغه وفي لحظة من لحظات عيني . ولكن لا بأس عليك فما أنت بالقديس وما أنا . . .

قال مسرعا : عفوا يا سيدتي

وأشارت هي الى الفتيات أن أسرعن ، فأحطن به ودفعنه دفعا يسيرا الى ما وراء الأستار

وخلت شهر زاد الى نفسها فأخذت قلمها وكتبت الى هذا الكتاب الذي الفيته من الغد على مائدة صاحبي لم يحمله الى ساعي البريد ، ولم يعرف صاحبي كما لم أعرف كيف وصل الينا

« سيدي :

« لك مني الشكر المضاعف والتحية الخالصة ، لقد وجدت في زيارتك اياي راحة وترفيها على ، ولقد استقبلت بعد انصرافك عني نوما هادئا مطمئنا ، ولقد نصحت لي فصدقت النصح ، وأشرت علي فأحسنت المشورة ، فقد خطف أصحابي صديقك الأديب وحملوه الى على الحال التي كان عليها في طريق من طرق سالنش أشعث اغبر مهملا قد اختلط أمره وهو يحسب أن الرشد لم يفارقه ، وامتلأ قلبه روعا ورعبا وهو يظن أنه أشجع الناس

« حملوه الى وقد اتخذ معطفه ترسا يتقى به ما اقبل عليه من شر ، ولم يخطر له أن يقاوم المعتدين عليه حتى بعصا

الصيد هذه التى كان يهزها فى يده كما يهز الفارس العربى رمحه السمهرى . ولم أكد أراه وأسمع له حتى استيقنت انه كما انبأتنى ساذج برىء . زعم أنه شجـاع وأنه ذاد عن نفسه ما استطاع ، ولم يقدر أن الذين حملوه الى قد أنبأونى بما لقوا من مقاومته وما بلوا من حسن دفاعه عن نفســه . ولكنى لم أكد أحاوره وأطيل معه الحديث حتى تبينت انه ـ كما انبأتنى عنه ـ معقد شديد التعقيد، فقد أخذ يداورنى ويماكرنى ويلقى الى جملا ذات وجهين وأخرى ذات أوجه . راعه انى اتخذته سميرا فأراد أن يخلص من هذه الخدمة التى يتهالك عليها كثير من الأدباء وتتقطع دونها أعناق كثير من أصحاب المواهب والنبـوغ . فسلك الى هـذا التخلص طرقا ايسر ما توصف به انها يسيرة كل اليسر ملتوية كل الالتواء . الم يطلب الى أن آذن له فى أن يتثاءب ؟ أرأيت أديبا يتثاءب فى حضرة شهرزاد ؟ الم يعرض على أن أصحبه الى الغدير أو البحيرة لنصطاد السمك معا ؟.. فلما لفته الى أن شهر زاد لا ينبغى لها أن تصطاد السمك لم يخف من أن يذكرنى بأن أبى كان صيادا

« انه لساذج كل السذاجة ، معقد كل التعقيد . لقد كان يدفعه تعقيده الى أن يمكر بى وينشر لى الشباك والأشراك ، ولقد كانت سذاجته تخيل الى أنى قد انخدعت لمكره ووقعت فى حبائله . فقد كان يفهم كلامى على وجهــه ولا يقدر انى أستطيع أن القى مكرا بمكر ، وعبثا بعبث وخداعا بخداع . له الله ، انه يظن أن المكر وقف عليه ، وأن الدهاء لم يخلق الا له . انه قد فهم كيد النساء فظن انه أبلغ كيدا من النساء ، ولكنى

ملكت أمرى اكثر مما ملك امره ، فخيلت اليه وخيل هو الى نفسه انى لم انكر مما قال شيئا ، واظهرت له يأسى منه وخيبة املى فيـه وفى قدرته على أن يسـامرنى ويطرد عنى الحرج والضيق . فسره ذلك وأرضاه ، وظن أن انتصـاره محقق وان الافراج عنـه قريب ، ولست اريد ان أغريك به ولا ان انسد ما بينك وبينه من الود ، فانا حريصة على أن تصلح الأمور ابدا بينكما ، ولست أريد أن أعاتبك ولا أن ألومك فانى لم اصدق ما قال فيك ، ولم انخدع بكيده لك ، ولكنى اريد ان أؤكد لك انه ساذج حقا . فقد زعم لى وظن انى سأصدق ما زعـم لى ، زعم لى أنك رغبتنى فى مسـامرته لتفلت أنت من هذه المسامرة وتخلو الى شاعرك الذى انت مشغول به ، والذى تؤثر الاستماع له والتحدث عنه على مسامرة شهرزاد

« وقد رأى منى ما اقنعه بانى مصـدقة محنقة مفكرة فى الانتقام فتجاوز الكيد الى الاغراء ، وعرض على أن اخطفك كما خطفته ، ويسر على أمر خطفك من حديقة الفندق تحت شجرة الزيزفون ، أو من هـذه الغرفة التى تخلو فيها مع صاحبك الى شاعرك هذا الذى يشغلك فى هذه الأيام . وقد اظهرت له قبول رأيه ، فلا تسل عما ملأ قلبه وظهر على وجهه من الغبطة والبشر ، ولكن ابتهاجه لم يطل ، فما أسرع مادعوت ثلاثا من جوارى فأمرتهن أن يأخـذنه فيفعلن به الأفاعيل . ثم يرددنه الى وقد صار أهلا لمسامرتى . ولو رأيته بين أيدى هؤلاء الفتيات لرأيت عجبا ، ولو سـمعته يتحـدث اليهن لسمعت عجبا : ولكن لن أقص عليك شيئا من ذلك وانما ادع

له انباءك به ، فان له فى هذا فنا لا يخلو من فكاهة ترضيك ، وأنت ستراه من غير شك ، وستراه عندى ، فما أظنك تكره زيارتى ، وما اصدق أن المتنبى يشغلك عنى . وهب المتنبى قادرا على أن يصرفك عن شهرزاد فان صاحبك فى حاجة اليك . فأمره أشد مما تظن خطرا . بل هو اشد خطرا مما كنت اقدر ومما كنت أريد

« لقد كنت التمس سميرا فدللتنى عليه ، ولكن قصرى لم يكد يحتويه حتى كثر الماكرون به والكائدون له والمتألبون عليه هؤلاء أشخاصه الذين خلقهم خلقا فى هذه القصة التى نسجها حول شهرزاد ، والذين بعد عهدهم بى وانقطعت أخبارهم عنى حتى انسيتهم أو كدت انساهم ، وحتى نسونى أو كادوا ينسوننى ، قد عرفوا مكانه من القصر وخضوعه لسلطانى ، ولست أدرى كيف عرفوا ذلك . فأقبلوا جميعا ولست ادرى من أين أقبلوا وكلهم يريد أن يخاصمه وكلهم يريد ان يقتص منه ، لأنه صورهم على غير ما يحبون وانطقهم بما لا يرضون ، واجرى على أيديهم من الأعمال وأدار فى رؤوسهم من الخواطر ما لم يخطر لأحد منهم ببال . وما ظنك بشهريار الذى فارقنى منذ احقاب واحقاب ، وقد عاد الى اليوم يحاورنى ويجادلنى فى هذا الرجل الذى صوره كما تعرف وجعله كما يقول مثلا للغباء الذى يزعم الذكاء ، والغفلة التى تتدعى الفطنة ، والضعف الذى يتكلف القوة ، ومثلا لأكثر من ذلك ، وهو يلومنى ويغرينى ويحرضنى ، ويسألنى كيف أعفو عن هذا الذى اتهمنى فيما لا ترضى امرأة حقيرة أن تتهم فيه، فكيف بملكة كريمة مثلى متسلطة على القلوب خالدة على

الأزمان . وقمر يقسم ما أضمر لمليكه غدرا ولا أدار فى خلده شيئا يستحى أن يظهره

« والعبد ـ وويل لصاحبك من العبد ـ انه ثائر فائر ، انه مرغ مزبد ، انه مبرق مرعد ، انه يريد أن يمزق صاحبك بأنيابه وأظافره ، انه لا يطيق التفكير فى العفو عن هذا الرجل الذى جعله صورة بشعة لأبشع ما يتسلط على العقول والأبدان . وهو يغرينى ويحرضنى ويريد أن يضرم النار فى قلبى لولا أن قلبى أهدأ من أن تضطرم فيه النار . وهو يسألنى كيف اترك الحياة لرجل صورنى فى هذه الضعة وجعلنى أهبط من أعلى عليين لأكلف بهذا المخلوق البشع الدنىء ، والساحر يقسم ما سحر ، والجلاد يقسم ما باع السيف لينفق ليلة هنيئة ، وأبو ميسور يقسم ما أظلت حانته اثما قط ، حتى زاهدة تقسم ما عرفت سرا ولا سئلت عنه ولا باحت به ولا اتخذت وسيلة الى معرفته . وكل هؤلاء مغيظ محنق يلح على فى أن انتقم له وانتقم من صديقك البائس المسكين ، ومع انى كنت ضيقة به ساخطة عليه حين قرأت كتابه ، فقد أدركتنى الرحمة له والرفق به حين رأيت هذه الأشباح كلها تريد أن تشرب دمه وتأكل لحمه وتعرق عظمه عرقا ، أسرع الى زيارتى يا سيدى فلعلك تعيننى على حماية هذا الصديق المسكين

« على اننى لا أريد أن يظن بى صاحبك انى خطفتك كما خطفته ، فأنت أحب الى وأوثق عندى من ان تخطف ، ولكنى أريد أن تنبئنى باستعدادك لزيارتى . فاكتب الى ان كنت فى

هذه الزيارة راغبا ولا تكلف نفسك محاولة ارســـال الكتـــاب الى . ولكن اذا أتممت املاءه فليضعـــه صاحبك على المـــائدة فهذا يكفى . وأنا مظهرة أسيرى البائس على كتابك ليعلم أن الناس جميعا لا يخطفون ، وأن منهم من يزورون شهرزاد عن شوق اليها ورغبة فى زيارتها ، وأن المتنبى مهما يشغلك فلن يصرفك عنى . والى أن يصـــل الى كتابك أرجـــو أن تتقبل يا سيدى تحية التى تنتظرك مشوقة اليك »

شـــهر زاد



الی شہرزاد

ولست أدرى كيف اصف لك أيها القارىء العزيز ما احدث هذا الكتاب فى نفسى من الاثر ، فأنا صادق ان أنبأتك بأنه ملأ قلبى بهجة وسرورا ، وأنا صادق ان أنبأتك بأنه ملأ قلبى جزعا وفزعا ، وأنا صادق كذلك ان أنبأتك بانه اثار فى نفسى حزنا يسيرا . فأما البهجة والسرور فلأنى كنت أتحرق شوقا الى لقاء شهرزاد . وأما الجزع والفزع فلأنى كنت أرتعد اشفاقا على توفيق الحكيم ان تتقسمه هذه الأشباح فيذهب شهريار برأسه ، ويذهب كل واحد منها بشلو من أشلائه . وأنا الذى دل عليه شهرزاد فعرضه لهذا الخطر المنكر ، وللرجل أهله وأصدقاؤه فى مصر قد فارقهم منهوكا ضعيفا ليعود اليهم قويا أيدا . وهو بعد هذا كله صديق لى حبيب الى ، أوثر له العافية وأضن به على المكروه ، وأتمنى له حياة متصلة مملوءة بحركاته هذه المضطربة المتناقضة التى ترضى وتسخط وتسر وتسوء . وأما الحزن اليسير فلموجدة أحسستها حين رأيت صديقا يكيد لصديقه وأديبا يتجنى على أديب . ولست أنكر انى قد مكرت به شيئا حين أغريت به شهرزاد ، ولكنى لم أرد به الا خيرا لأنى اتحت له لقاء تلك التى جعلته رجلا معروفا . فما كنت أقدر أنه سيمكر بى ويكيد لى على هذا النحو . أما صاحبى فلم يجد الا غبطة وفرحا لأنه سيرى شهرزاد وقصر شهرزاد . وكان يقول لى

هون عليك فما يتعرض صديقك لخطر ما ، ومتى رايت الأشباح تتقسم بينها اجسام الأحياء ؟ وهل تستطيع هذه الاشباح ان تثبت لكيد شهرزاد ومكرك أنت اذا اجتمعتما على حماية توفيق ؟ ومع ذلك فأنك تحفظ كثيرا من هذه الصيغ السريانية والكلدانية التى تتلوها فتطرد بها الأشباح من المكان الآهل بها ، وترد هذا المكان آمنا كله لا خوف على اهله ولا هم يحزنون

وكان يقول لى لا تجد على توفيق ولا تسىء به الظن ، فقد ضاقت عليه الحيل واخذت عليه الطرق فاتخذ الوقيعة فيك عند شهر زاد وسيلة الى الافلات من سجن شهر زاد . وانت تعرف صاحبك واندفاعه ورجوعه بعد الاندفاع . ومن طبيعة الادباء ان يمكر بعضهم ببعض ويكيد بعضهم لبعض ، والامر منته بينكما الى مودة لا تشوبها ضغينة ولا حفيظة . فخلص قلبك من الحزن والخوف ، وخل بينه وبين الفرح بلقاء شهر زاد وامل على الكتاب الذى تنتظره منك

ثم يبسط الصحف امامه ويأخذ القلم ويعفينى من هذه الحركة التى الفتها كلما هممت بالاملاء ، وهى التماس السجاير، فيقدم الى السيجارة ويشعلها ويقول ما تعود ان يقول « نعم » فأملى عليه :

« ادركنى كتابك ياسيدتى وقد بلغ منى الجهد والاعياء اقصى ما يستطيعان ان يبلغا من رجل لم ينم الليل ولم ينم بالنهار . لو تعلمين كيف انفقت الساعات واللحظات منذ

ودعتك لما احتجت الى ان تنبئينى بأنك لا تقبلين فى سعاية ولا تستجيبين فى لكيد . اتعرفين شيئا اروع من الليل العريض يجثم على الفضاء العريض منيخا بكلكله كما يقول شاعرنا القديم . وقد اخذت السماء ترميه من اشعة النجوم بسهام ماضية تبلغه وتنفذ فيه ، ولكنها لا تنال منه شيئا ولا تحدث فيه اثرا ، وانما هو ثابت لاينتقل ومستقر لايزول . اما انا فقد عرفت روعة هذا الليل ورهبته امس حين استقبلت المساء على غير موعد منك ، ولكنى مملوء القلب املا . الا يتقدم الليل حتى تأتينى رسلك فأنفق معك ساعات كتلك الساعات التى لن انساها . ولم يكن صاحبى فيما اعلم اقل انتظارا منى لهذه المفاجأة الحلوة ولا اقل حرصا منى على هذه الدعوة الكريمة . انه لم يتحدث اليك ولكنه رآك واستمع لك ، وهذا يكفيه ليملأ قلبه شوقا الى رؤيتك وكلفا بحديثك ، لقد استقبلنا الليل ياسيدتى وان قلبينا ليضطربان بهذا الامل ويخفقان بهذه الامنية ، ولقد حاولنا ان نقرأ الصحف وننظر فى الكتب ، فجعل صاحبى يقرأ ما لا يرى وجعلت لا اسمع لما كان يقول ، تركته تائها فى صحفه وكتبه وتركنى ذاهبا مع الامل والخيال . كلانا يظهر لصاحبه انه معنى به ملتفت اليه ، وكلانا يخفى على صاحبه ان عقله قد فارقه وان لبه اسير هناك فى ذلك القصر الذى رايناه واقمنا فيه وتحدثنا الى اهله وسمعنا منهم ، ولكننا لا نعرف اليه طريقا ولا نستطيع اليه سعيا . وانتصف الليل فاذا الامل كاذب ، واذا الرجاء خائب ، واذا الحسرة

لاذعة ، واذا هي تبدى نفسها ، واذا كل منا يرى صاحبه كما هو ، واذا نحن نفترق لا لنأوى الى المضاجع ، ولـكن لنسأل عنك ظلام الليل ونجوم السماء وهذا النسيم المضطرب فى الجو

« نعم ياسيدتى لقد تركت صاحبى لا لاستريح ولكن لأخلو الى خيالك والى ذكرك حين اعيتنى الخلوة الى شخصك . فأنفقت ما بقى من الليل جالسا فى شرفة تخرج عن غرفتى شيئا استقبل الليل وآنس الى صمته الرهيب واستمتع بهذه الموسيقى الخافتة التي تبعثها فيه احياء الغابة والحقول. او اذعر من حين الى حين لهذه الدقات التى تضطرب فىالجو تحسب المسكينة انها تقيد الليل وتقسمه اجزاء وتنبىء بما مضى منه وتتنبأ بما بقى ، وتتأذن بما بيننا وبين الفجر من آمال . وانها لتفعل هذا كله بالقياس الى الذين اقفرت قلوبهم من الحب وبرئت نفوسهم من الشوق ، فاما الذين رأوا شهر زاد ثم نأوا عنها فليلهم متصل لاينقضى ونهارهم متصل لاينقضى ايضا ، لان ليلهم ونهارهم عليهم سواء ، كلاهما مظلم وكلاهما جامد وكلاهما طويل ثقيل . كأن هؤلاء المحبين لايعرفون الشمس الا حين يشرق لهم وجه شهر زاد ولا يعرفون الامن والهدوء والدعة والنعيم الا حين يغمرهم جمال شهر زاد

« لقد صدق توفيق الحكيم ياسيدتى فأنا فى هذه الايام مشغول بالمتنبى ولـكنى مشغول به عن كل شىء وعن كل انسان الا انت . فان امنيته الملحة عليه المضنية له المنغصة

الليله ونهاره تشبه امنيتى الملحة على المضنية لى المنغصة لليلى ونهارى ، ولـكنى لا اتمنى كما كان يتمنى ملـكا وسلطانا ، ولا اشتهى كما كان يشتهى ثروة وغنى ، انما أتمنى لقاءك والاستمتاع بجوارك القريب ، واى ملك يشبه الخضوع لك او يعدل الاذعان لامرك ، واى ثروة تشبه الشعور بأنى قريب منك ليس بينى وبين الغنى الذى يمتع القلب والعقل الا ان اتجه اليك فأسمع منك او احس قربك منى ؟

« رحم الله المتنبى ياسيدتى فقد اعاننى على احتمال الشوق ويسر على بعض الشىء ثقل الليل لانه ترجم عما كنت اجد فى هذه الابيات التى تغنى بها ذات ليلة فى انطاكية وتغنت نفسى بها الليلة البارحة فى سالنش ، ولولا بقية من عقل تأبين ان تستأثرى به كله رحمة بمحبيك ، لاطاع لسانى نفسى ولاندفعت مغنيا هذه الابيات يشق صوتى بها سكون الليل ويوقظ بها الهادئين الهاجعين من حولى

« اتذكرين هذه الابيات ياسيدتى ، وهل تنسين شيئا ؟ وهل ينبغى لك ان تنسى شيئا ؟ استمعى لها فانها لاتصور المتنبى وحده وانما تصور كل محزون كئيب قد حيل بينه وبين ما يتمنى واكره مع ذلك على ان يحيا فيسهر الليل ويضطرب فى النهار !

أعزمى طال هذا الليل فانظر
امنك الصبح يفرق ان يؤوبا
كأن الفجر حب مستزار
يراعى من دجنته رقيبا

كأن نجـــومه حلى عليـــه
وقـد حذيت قوائمه الجبوبا (١)
كأن الجـــو قاسى ما اقـاسى
فصـــار سواده فيه شـحوبا
كأن دجاه يجذبهـــا سـهادى
فليس تغيب الا ان يغيبـــا
اقلب فيـــه اجفـــانى كأنى
اعـد به على الـدهر الـذنوبا
وما ليـــل بأطول من نهار
يظل بلحظ حسـادى مشـوبا

« بهذه الابيات تغنى ضميرى بقية الليل ولـكنه كان يضع الشوق موضع العزم فان فراقك لم يبق لى عزما ولاحزما . ثم اشار الفجر بأصبعه الوردية التى اريتها انت ياسـيدتى لضرير اليونان منذ ثلاثين قرنا فاذا الليل الجاثم ينهزم ، واذا الشمس تقبل فتبسـط الضوء والحياة على كل شىء وفى كل نفسى ولـكنى اظل محروما ضوء الشمس وحيـاتها لانك انت الشمس والحياة . وانا احمل الطير المستيقظة التى تغدو من وكناتها فرحة مرحة يسكرها نسيم الصبح وبرد الندى وضوء الشمس رسائلى اليك لعل بعضـها ان يمر بقصرك المسحور فيرسل من فيه نغمة تحمل اليك بعض ما اجد من لوعة ، وما اقاسى من الم . وانا اهيم مع صـاحبى وجه النهار فى الجبال والربى اسأل عن اخبارك طير الغاب ومايعبث

(١) الجبـــوب : الارض . وحذيت قطعت ، فكانه اراد قد قطعت له من الارض قوائم فليس يبرح

بأغصان الشجر من نسيم ، واسأل عن اخبارك هذه الغدران الضئيلة الصافية التى تنحدر من الجبال متعطفة متلوية تناجى الصخور وتناغى الحصى لعل فى مناجاتها ومناغاتها شيئا من حديثك يرد الى بعض ما فقدت من امن وهدوء

« ولم تحمل الى الطير نبأ ولم يبلغنى النسيم خبرا ولم ترد الى مناجاة الغدران ومناغاتها امنا ولا هدوءا فأعود قانطا مستيئسا ، ولكنى اجد كتابك ، فتبينى الآن امشغول انا عنك بالمتنبى ؟ اكنت زاهدا فى جوارك حين ودعتك ، اكنت راغبا عنك حين عدت الى هذا الفندق الذى اضيق به الآن اشد الضيق

« لبيك ياسيدتى ، لبيك دعوة كريمة وطاعة سريعة لاتنتظر الا ان تامرى بأن اشخص اليك . لست مشغولا عنك بشيء ولا بأحد ، ولست فارغا لاتحدث عن كيد توفيق لى عندك فليس يعنينى الا ان ابلغ رضاك عنى واضمن ثقتك بي . ومع ذلك الله يعلم ما اردت بالصديق الاديب شرا ومتى كان القرب منك شرا . انما آثرته على نفسى حين دللتك عليه وانبأتك به . وآثرتك انت على نفسى ياسيدتى لان توفيقا كان يسليني ويلهينى ويفتح لى أبوابا من الرضى والبهجة ، ويعرض على فنونا من العبث والضحك ما كنت لافرط فيها لولا انى احسست حاجتك اليه

« لاتيأسى منه ياسيدتى فتجدين عنده ما تريدين ، آمنيه وهدئى روعه ، ثم دعيه يرسل نفسه على سجيتها واستمعى لحديثه واجيبيه جادة حينا وهازلة حينا وانتظرى نتيجة ذلك فسترضين . لقد طلب اليك ان تصحبيه الى الغديرلتصيدى

السمك معه ، فاصحبيه ياسيدتى واظهرى انك تريدين الصيد فستضحكين كثيرا قبل ان تبلغى الغدير حين ترينه فارسا مغوارا وبطلا كميا قد ملأه الفخر والاعجاب والتيه بما يحمل من اداة الصيد وستضحكين كما ضحكنا حين يبلغ الغدير ويلقى اداة صيده فى الماء ثم يحس حركتها ثم يحس ثقلها ثم يستيقن انه قد اصطاد ثم يجذب ويجذب ويجهد نفسه فى الجذب مستيقنا ياسيدتى انه قد ظفر بكنز من هذه الكنوز التى سحرت بها عقل شهريار ، ثم يخرج اداة صيده من الماء الا انه قد فقد السنارة

« ستضحكين ياسيدتى حين ترينه يعاود هذا الجهاد مرة ومرة ، ثم يرجع معك وقد صفرت يده من الصيد واضطربت نفسه بين الرضى بما جاهد والسخط على ما اخفق ، فهو يرثى لنفسه وهو يضحك من نفسه ، وهو يحملك على ان ترثى له وتضحكى منه . نعم وستغرقين فى الضحك حين ترينه يصطاد نفسه بعد ان عجز عن صيد السمك . نعم يصطاد نفسه ياسيدتى ، لاتنكرى ولا تدهشى ، فقد اصطاد توفيق نفسه ذات يوم . اختلط فى خيطه وارتبك ولم يعرف لنفسه مذهبا فاستغاث : « انجدونى فقد اصطدت نفسى » واقبل اصحابنا عليه فلم يخلصوه من سنارته الا بعد جهد ثم خافوا عليه ان يصطاد نفسه مرة اخرى فجردوه من سلاحه الخطر ولفوه فى بعض الورق ، وقالوا له احتفظ به ولا تخرجه الا عند الغدير ، ولكنه اضاع سلاحه ياسيدتى ، وعاد اعزل الا من هذه العصى التى لا تنفع ولا تضر

« وانا قاس حقا اتندر بهذا الصديق البائس وقد احاط به ما وصفت من خطر وتألبت عليه هذه الاشباح العاتية تريد ان تمحقه محقا وتسحقه سحقا . كلا كلا لن ترضى نفسك من هذا ياسيدتى ، ولن تسمحي به ، ولن تأذني فيه ... من يسليك اذن ومن يسليني ومن يسلى قراء العربيــة من المصريين والشرقيين ، وقراء الفرنسية والروسية ايضا فقــد ترجم الى الفرنسية والروسية كما تعلمين

« كلا كلا ، ستحمينه وستقومين دونه ياسيدتى ابقــاء على شخصه ورحمة لاهله واصدقائه ومحبيه ثم حفاظا للأدب وذودا عن حرية الرأى ، يا للشر يا للخطر ، يا للبلاء ، حتى ارواح الموتى قد مســتها عدوى الطغيــان فهى تمقت حرية الراى وتعاقب العقل حين يفكر والقلب حين يشعر ، والخيال حين يبتكر . الم يكف حرية الراى ما تلقاه من عنت الطغاة بين الاحياء حتى تصبح ارواح الموتى عدوا لهذه الحرية وظهيرا لخصومها واعدائها ، لن ترضى نفسك الابية عن هــذا الذل ياسيدتى ، ان الذين يعتدون على حرية الراى من الاحيــاء والاموات انما يعتدون عليك انت لانك مصدر الراى والشعور والخيــال ، ان الذين يســتعدونك على توفيق ويغرونك به لايستعدونك الا على نفسك ولايغرونك الا بنفسك ، فاحذرى ياسيدتى ان تسمعى لهم

« لبيك لبيك ، مرينى اكن عندما تحبين ... »

ولم اكد اتم الــكتاب واترك صــاحبي يضم عليه الغلاف حتى احسست حركة خفيفة واذا صاحبي ينهض مذعورا لان الكتاب قد اختطف من يده اختطافا

فى الحمام

مشى الاسير بين الفتيات الثلاث الى الحمام مطأطىء الراس، يخفى عنهن وجهه بمعطفه وهو يردد فى نفسه قانطا :

ــ اهكذا قضى الامر ! ولم يغن عنى شيئا ذلك الحوارالذى دار بينى وبين شهر زاد ؟ وبعد ! اأترك نفسى حقا لهاته الفتيات يفعلن بى الافاعيل ؟ ارى والله ان لم يبق لى غيرالهرب

وسار فى سكون ينتهز نهزة صالحة . وارادت الجوارى ان يجاذبنه الكلام فلم يتلقين جوابا . فقالت احداهن :

ــ عجبا ... انه كالنائم

وقالت الثانية :

ــ انه شارد اللب كالذاهب الى المشنقة !

فأجابت الاخيرة :

ــ ربما افاق ونطق اذا غطسناه فى الماء البارد

فاصطكت اسنان الاسير وسرت فى بدنه رعدة ، غير انه لزم الصمت . وواصل الجميع السير فى دهاليز ممدودة ، بعضها مضىء وبعضها مظلم ، حتى بلغوا منعطفا ضيقا فوقفت الاولى وقالت :

ــ ارى ان تذهب احدانا فتحضر الصابون وان تذهب اخرى فتحضر المواسى وان اقود انا السجين . ثم نتقابل جميعا عند الحمام ؟

فرفعت الثانية عقيرتها مغيظة :

ـ عجبا لهذه القسمة الضيزى ! تختارين لنفسك الانفراد به ، ونذهب نحن للتافه من الامر ! كلا . هذا لن يكون ، انا اقود الاسير وانت تذهبين للصابون !

فصاحت بهما الثالثة :

ـ لا انت ولا هى ... بل انا

ـ انت ! هيهات ! تعال ايها السجين !

ـ دعيه ! تعال معى انا ايها الاسير !

ـ ايها السجين ، قف الى جانبى انا

وتناولنه فى ايديهن كالكرة يتنازعنه ، وقد ساءت حاله معهن وبح صوته من الصياح :

ـ حسبكن ... حسبكن ! قد مزقتن المعطف بهذا الشد والجذب ! اتفقن اولا فيما بينكن !

ـ نتفق ! هيهات ، هيهات ان نتفق بغير هذا !

خلعت صاحبة الكلام نعلها وخلعت الاخريان نعليهما . واشتبك الثلاث فى معركة حامية الوطيس والاسير بينهن يصيح :

ـ مهلا ، رفقا ! ان النعال لا تصيب الا قفاى ! اتركننى ناحية ريثما تصفين مابينكن من حساب !

فدفعنه بعيدا عنهن . فنهض ونفض الغبار عن ثيابه والتفت فى الحال يمينا ويسارا فألفى بقربه دهليزا مقفرا مظلما فانسل فيه هاربا وهو يقول غير مصدق :

ـ تلك هى الفرصة الذهبية التى لن يجود بمثلها الزمان !

فى ذلك الوقت كان طه حسين جالسا الى صاحبه «فريد»



« وتناولنه فى ايديهن كالكرة يتنازعنه »

تحت شجرة الزيزفون يصغى الى ما يقرؤه عليه من شعر « المتنبى » ، وهو فى حقيقة الامر لايصغى الى شىء ولا يستمع الا الى « شهر زاد » الماثلة فى اعماق نفسه تهمس اليه بصوتها العذب الرقيق كأنه صوت اجنحة فراش جميل الالوان ، او حفيف غصن محمل بأزهار الربيع ، ذلك الصوت الذى كلما سمعه فتن به افتتانا . انه يملأ اذنيه الآن . بل انه يرقص حوله كما ترقص عرائس الجن فى المروج . هو شىء غير منظور ، لكنه يحس له كيانا حيا وجسما نابضا لا ككل الاجسام ! انه يدعوه فى اشارة خفية ويجرى امامه الى جهة قصية . هنا لم يملك الدكتور نفسه فنهض مستويا على قدميه . فوقف صاحبه عن القراءة مستغربا :

ــ ماذا جرى ؟

ــ هلم بنا اليها

ــ الى من ؟

ــ الى الفاتنة ربة القصر المسحور

ففكر « فريد » قليلا ثم قال فى تردد :

ــ ولكننا لم نتلق بعد منها دعوة الى المثول بين يديها

ــ لاحاجة بنا الى دعوة ولا احسبها تكره لقائى فى اى وقت

ــ ولكننا .. نجهل مسالك هذا القصر وهو كثير الدهاليز ، والوقت ليل ولم نعتد دخوله بغير رسول منها او دليل

ــ قلت لك هلم ولا تزد

ــ انها لمخاطرة

فضغط « طه » على يد صاحبه ضغطا قويا كاد يؤلمه وصاح به :

ـ انى قد عزمت ، وانا رجل كما تعرف صلب الرأى عنيد . ولا شيء يثنينى عن اقتحام المخاطر وارتياد المجاهل

ـ هذه الصلابة قد عرضتك احيانا الى ماتكره

ـ حقيقة . ولكنى .. هكذا خلقت. ولا قبل لى بتغيير طبعى وسجيتى ... هلم ...

◻

وفى حلك الظلام سار الاثنان مجدين حتى بلغا اسوار القصر المسحور . فتمهلا وجعلا يتلمسان فى الاسوار بابا او مدخلا فلم يجدا من ذلك شيئا . واعياهما التعب فقعدا على الارض واسندا ظهريهما الى السور وتساءلا فى يأس :

ـ كيف السبيل الى داخل القصر ، وكيف دخلنا اذن اول مرة ؟ ! انه لاباب له . حقا انه لقصر مسحور !

ولم يدم يأس طه حسين طويلا وسرعان ما اسلم نفسه للقدر كعادته . فالتمس فى الظلام يد صاحبه الذى الجمه الخوف ووحشة المكان وجهل المصير ، وهزه هزا خفيفا وقال له :

ـ ناولنى « سيجارة » !

فثاب «فريد» لنفسه واخرج من جيبه لفائف التبغ وقدم الى الدكتور واحدة منها ثم اخرج علبة الكبريت واراد ان يحك العود فى السور واذا يده قد غارت هى وعود الثقاب فى فجوة لا آخر لها فصاح لساعته :

ـ هنا ثغرة فى السور ؟

ـ اين ؟ اين ؟

وقام « طه » فى الحال نازعا من فمه « السيجارة » :

ـ فلندخل من هذه الثغرة !

ولم ينتظر من صاحبه رايا ولا جوابا . فأمسك بذراعه ودفعه امامه الى داخل الثغرة دفعا . ثم مشيا قليلا ثم كثيرا ، ثم امعنا فى المشى دون ان يصلا الى بصيص من نور ، فأوقدا عود ثقاب فاذا هما يتخبطان فى دهاليز طويلة مظلمة متشعبة متقاطعة كأنها شبكة منصوبة . عندئذ صاح « فريد » :

ـ حصل

ـ ما هو الذى حصل ؟

ـ قد وقعنا فيما نكره

ـ كيف ؟

ـ ان لم يكن هذا جب ، فأغلب الظن انا الساعة فىموضع لن نصل منه الى شيء . آه ! وقعنا . من ذا الذى يستطيع ان يخرجنا من هذه الدهاليز التى يضل فيها الخاطر

ـ وما الراى ؟

ـ تسألنى الآن الراى يادكتور ؟ ! لم يبق من رأى الا ان نختار لنا طريقا من هذه الطرق ونسير فيه الى النهاية

ـ كلا ... تلك ليست عادتى ... اضرب بنـا فى كل طريق

ـ لدى فكرة . ابق انت يادكتور ها هنا ، ولاذهبن انا ركضا فى كل جانب من جوانب المكان حتى اذا ظفرت بشيء عدت اليك

ـ نعم الرأى ... اذهب وانا فى انتظارك ها هنا

ذهب « فريد » وابتعد . وبقى الدكتور وحـده فى ذلك الموضع من الدهليز يفكر فى امره تلك الليلة وفى هذا المـأزق الذى ادخل نفسه فيه وقد كان فى الفندق آمنا مطمئنا ، لكنه يتبرم دائما بالامن والاطمئنان ويخلعهما عنه فى ضـيق كما يخلع الرداء الثقيل فى يوم قيظ شديد . ما الذى حمله على ترك جلسته الهادئة تحت الشجرة ليقف هذه الوقفة فى الظلام يلتمس صوتا او حركة فلا يسمع الا انفاسـه المضـطربة . نعم ، لقد بدأ القلق والخوف يجدان اليه السـبيل . ويخيل اليه انه يسمع الآن همسـات بعيدة . اهى حقيقة ؟ ام هو الوهم والخيال بدءا يلعبان على مسرح الرأس التعب ! ! ولكن الهمسات تقترب وتتخـذ رنينا واضـحا يدوى بين جدران الدهاليز . بل انه يسمع الساعة صوت اقدام تضرب الارض انها تدنو ، والاصوات تتضح . انها اصوات نساء . نعم لم يبق ريب فى الامر ، ولم يلبث طه حسين ان احاطت به الفتيات الثلاث وهن يصحن :

ـ هاهو ذا ! قد وجدناه !

ثم هجمن عليه هجمة واحدة وقبضن عليه بقوة وشـدة وجذبنه جذبا عنيفا وهن يقلن فى شبه صوت واحد :

ـ ايها الهارب !

ذهل طه حسين فى اول الامر ذهولا عقل لسانه . فهـذا الانقضاض عليه فجأة فى هذا الليل الساجى ليس هين الوقع على النفس . غير انه ملك سريعا ناصية امره وقال دهشا :

ـ هارب ؟ ! على النقيض . انى جئت بنفسى واقبلت شوقا وحبا . . .

فقالت الجوارى ساخرات :

ـ شوقا وحبا ! ياله من مخادع !

وقالت الاولى وهى تقرصه قرصة مؤلمة :

ـ ايها الماكر ! انتهزت فرصة خلاف دب بيننا وفررت..

ـ آه ! ذراعى ! لامعنى لهذا القرص الموجع ايتها السيدة المهذبة !

وقالت الثانية وهى تخزه بأبرة معها :

ـ لقد قلبنا الدهاليز راسا على عقب حتى وجدناك !

ـ آه ! آه ! كل شىء الا وخز الابر !

وقالت الثالثة وهى تعض اذنه :

ـ لو عرفت المصير المخيف الذى كان معدا لنا ان كنت ذهبت ولم نعثر عليك !

ولم يطق الدكتور الالم فصاح وهو يضع يده على اذنه :

ـ كل هذا قد جاوز الحد ! الا يمكن ياسيدتى ان نتكلم بالعقل وان نتفاهم بالمنطق ..

فدوت فى المكان ضحكة الجوارى الهازئات :

ـ المنطق ! سنريك الآن كيف يكون المنطق !

ثم حملنه على اكتافهن حملا وسرن به سيرا سريعا يشبه الجرى واحداهن تقول :

ـ لقد اضعت الوقت ومولاتنا فى الانتظار . ولا نرى الا حملك والركض بك ! اليس يعجبك هذا المنطق ؟ !

واراد الدكتور ان يتكلم وان يستعلم وان يستخبر فلم يسمحن له بالكلام . ولم يصر هو كل الاصرار خشية

عودتهن الى القرص والوخز والعض . وهو الآن على كل حال بخير فوق اكتافهن . وبلغت الفتيات اخيرا مكانا رحبا مضيئا ، فى صدره باب جميل النقوش كأبواب قصر من قصور ألف ليلة وليلة . فقالت الاولى :

ــ هاهو ذا الحمام ... فلندخل به !

ولم ينتظرن . ولم يستمعن الى اعتراض الدكتور . فدخلن وتهامسن وتغامزن ورفعنه قليلا ثم القين به دفعة واحدة فى حوض كبير مملوء بالماء البارد وهن يضحكن ضحكا عاليا

غاص طه حسين فى الماء ثم طفا وظهر وهو يشهق ويسعل وينتفض وقطرات الماء تتساقط من شعره ووجهه وثيابه والجوارى مستغرقات فى ضحك مرتفع . واحداهن تشير اليه وتقول لصاحبتيها :

ــ انظرا ! انه ينتفض كأنه عصفور بلله القطر ...

فأجابت الثانية على الفور :

ــ اى قطر . انه كعصفور غمره البحر ؟ !

ونظرت اليه الثالثة وقالت ضاحكة :

ــ انصتا ! انه يريد ان يتكلم

والتفت طه حسين حقا اليهن واراد ان يقول شيئا ولكنه ارتعد وعطس طويلا ، الى ان هدأ امره وخف عبء بلائه واستطاع الكلام . فقال لهن :

ــ اهى ... مولاتكن التى امرتكن ان تفعلن بى هذه الافاعيل ؟ !

فقلن جميعهن فى صوت واحد :

ــ نعم ..
ــ « شهر زاد » تأمر بهذا ؟ !
فقالت الاولى :
ــ انها امرتنا بأكثر من هذا . اننا لم نصنع بك شيئا بعد؟
ــ او لا يكفى ما صنعتن بى ؟
قالها طه حسين مرتاعا على نحو أضحك الفتيات ، فتساند بعضهن الى بعض . وقالت احداهن له :
ــ سترى ما نصنع . اين المواسى ؟
فصاح الدكتور من قلب الحوض صيحة مدوية :
ــ مواسى ؟ أؤمرتن بذبحى ؟!
فقالت الجوارى :
ــ كلا ، لا تخف ، لقد أمرنا فقط باصلاح شأنك
ــ اصلاح شأنى ! اذا كان ما حدث حتى الآن مقدمة لاصلاح الشأن فلا شك أن ماهو آت أدهى وأمر !
فقالت احداهن :
ــ كلا . اطمئن . انا لن نصنع بك الا خيرا . سنحلق لك لحيتك وشاربك ونجعل منك فتى رشيقا أمرد خليقا بمجالسة الملكات ومسامرة شهر زاد !
لم يكد الدكتور يسمع كلمة « المسامرة » حتى لمع فى رأسه خاطر وتذكر رسالة شهر زاد اليه ورده عليها فقال للفور :
ــ أيتها الجوارى ان فى الامر خطأ . لست انا المقصود بكل هذا اللطف والعطف !
فقالت الفتيات فى تهكم ظاهر :

ـ ومن غيرك ؟
ـ اخرجنني من هذا الحوض ! فقد تبين لى الامر
ـ ماهذا الهذيان ؟! انخرجك قبل ان نغير هيئتك ونجمل سحنتك ؟
ـ ذاك توفيق الحكيم الذى أمرتن به .. أما انا ..
ـ اننا لا نعرف اسماء . ولم نتسلم أسماء ، انما قد أعطينا شخصا ، نهيئه ونقلبه خير منقلب ثم نرده لمن دفعه الينا
ـ واين توفيق الحكيم ؟
ـ من هذا ؟ انا لم نسمع قط بهذا الاسم ، ولم نر الليلة غيرك
فحنق طه حسين وملاه حقد ويأس وغيظ فانفجر :
ـ اكاد افقد صوابى ! اين توفيق الحكيم ؟ أيها الناس ، دلونى فقط على هذا اللعين وانا أتكفل بالباقى !
وعندئذ قالت احدى الجوارى :
ـ كفى اضاعة وقت ! ان الملكة فى الانتظار . أين المواسى ؟
فصاح طه حسين :
ـ انتظرن أيتها الفتيات ، ان فى الامرخطأ ، وما انا المقصود اذهبن بى الى شهر زاد وهى تحكم في الامر
فقالت الاولى :
ـ ما بالك تخلط الآن فى الكلام . اين المنطق الذى كنت تتحدث عنه ؟
وقالت الثانية :
ـ ان حكم شهر زاد فيك قد سبق . وامرها صريح لاابهام فيه

وأردفت الثالثة وقد رفعت فى يدها الموسى :

ـ هاهو ذا الموسى ! تقدم ! ولا أمل لك بعد الآن فى الافلات ولا فائدة من المطل . فانا لن ندعك حتى ننفذ فيك أمر الملكة ونعيدك اليها حسن المظهر جميل المنظر !

فأسقط فى يد طه حسين ولم يجد لنفسه مخرجا فطأطأ الراس هامسا :

ـ انا لله وانا اليه راجعون !

ثورة الأشباح

استلقت « شهر زاد » على فراشها وغاصت بين دمقس وسائدها . وغاص عقلها فى بحار التأملات . لقد كان يدهشها امر الاسير الذى اختطفته ليبقى الى جانبها يؤنس وحدتها فلم تظفر منه بغير الاعراض والرغبة فى الافلات ! اترى فقدت « شهر زاد » سلطانها على الرجال ! هى التى من بين نساء الوجود قد فازت وحدها باخضاع ذلك الجبار « شهريار » ! تعجز اليوم ويعجز جمالها وذكاؤها عن اجتذاب مخلوق ساذج مسكين كهذا السجين ذى المعطف الاسود وعصا السمك ! اتراها قد هرمت وهى التى لا عمر لها ولا ينبغى لها أن تهرم أهو عجز وقصور منها حقا . أم هو حمق وتقصير من ذلك المخلوق الذى لم يستطع تقدير كنوزها ولآلئها ؟! لكن أيمكن أن تتهم بالحمق وقلة التقدير رجلا كتب عنها كتابا فجعلها فيه صنو « ايزيس » و « بيدبا » ! لكن ماباله اذ رآها الليلة وجها لوجه لم يلفظ كلمة تقدير ولم يلق اليها بكلام عميق ولم تسمع منه الا هراء ينم عن استخفاف . أهى التى كانت تدعى الى صيد السمك من الغدران ! أم هى التى كانت جديرة أن يدعوها الى زيارة هياكل الفكر الانسانى الخالدة على الزمان ! حقا انها لا تفهم من أمره شيئا . هى التى تفهم الرجال كامرأة عاشت ألف عام بين الرجال ! لاتستطيع أن تفهم هذا الرجل المعقد ! لكن لماذا لا تريد أن تعتقد انها قد هرمت قليلا وان

شعرات قد ابيضت فى رأسها الاسود الجميل

وان المرأة اذاهرمت كان عليها أن‌ترضى الرجال‌وأن‌تسايرهم وأن تعنى بالتافه من رغباتهم . فان استبقاء الرجال فن يجب أن تحذقه المرأة اذا علت بها السن . وضاعت امرأة اعتمدت على سحرها الماضى فجلست بلا حراك تنتظر أن يجثو عند قدميها الرجال ! ان لكل سن طرائقها ووسائلها . ولكل وقت أدوات صيده !

لقد صدق صديقها الحميم طه حسين اذ نصح لها فى‌رسالته الاتهمل رغبات توفيق التافهة وأن‌تتبعه‌حاملة مثله «السنارة» الى الجداول يصيدان السمك الصغير وهى الملكة العظيمة ! وان ترافقه الى المقاهى الحقيرة اذا طلبها هناك دون أن ترى حرجا فى ذلك أو تحقيرا من شأن مقامها الجليل ! انها قد نسيت ان للرجال صغائر وحماقات لا يخلو منها رجال الفكر والعقل . فلتتبع توفيقا فى أطواره ولتر منه ما يكون ! نعم هذا هو الراى ولكن لماذا ابطأت به الجوارى ؟ وقد كاد الليل أن يولى . هنا نهضت شهرزاد واستوت فى فراشها وصفقت بيدها فجاء العبد فقالت :

ــ أين السجين ؟

ــ انه فى أيدى الجوارى يامولاتى !

ــ أما فرغن بعد من أمره . فليسرعن به الى !

ــ مولاتى !

ــ مابك ؟ وما هذا التقطيب والغضب على وجهك ؟

ــ هذا السجين ، قد بلغنا من أمره كما تعلمين خبر عظيم .

فهو قد وصفنا فى كتاب له وصفا قبيحا ، وافترى علينا افتراء اثيما ! وكلنا هنا يطلب راسه . وقد أقسم « الجلاد » ان يتولى الجزاء بنفسه ، وقد تلقى أمرا من الملك « شهريار » بذلك و « الوزير ، والساحر ، وزاهدة ، وابو ميسور » !

ـ ليس يعنينى من امرهم شىء .. كل أولئك اشباح تعيش فى الماضى ، وقد جاءت اذ سمعت بسجن توفيق الحكيم كى تثير قضية تتعلق بالماضى ، ولكنهم جميعا غير قديرين على الحياة فى الحاضر والكلام فى الحاضر . لقد دخل على «شهريار» منذ لحظة ففرحت به كأنى عثرت على كنز مفقود ، لكن واأسفاه . سرعان ما تبين لى أنه لا يعرفنى ولا يعرف عن حياتى اليوم شيئا . فهو شبح وذكرى . وهو غير قدير أن يعيش خارج المائة والعشرين صفحة التى كتبها توفيق الحكيم لقد يئست منه بعد قليل ، وهو أيضا قد تركنى دون أن يعرفنى كأنه نائم أو مجنون

ـ انه يا مولاتى مع الوزير قمر والجلاد والساحر وابى ميسور وزاهدة

ـ نعم مع بقية الاشباح . انهم يستطيعون أن يفهم بعضهم بعضا .. اياك أيها العبد ان تجلس اليهم

ـ انى يا مولاتى أعيش معك اليوم فى الحاضر .. ولكنى احيانا ...

ـ كفى ! انى لا أطيق الكلام فى الماضى طويلا .. انى أعظم من أن أحبس فى عصر واحد . انى لكل العصور

ـ مولاتى ؟

ـ ماذا تريد ؟

ـ ان لم نسلم اليهم ذلك السجين فانهم لن يفارقونا

ـ انها لمحنة . وما الرأى ؟!

ـ ماذا يهمنا من أمر هذا السجين ، فلنقذف به اليهم

ـ لم يخب ظنى ، ان نصفك معهم ونصفك معى !

ـ انما اردت يامولاتى أن أريحك من وجودهم !

ـ لن اقطع برأى حتى أستشير صديقا لى . اذهب الآن عنى !

□

وسكتت شهرزاد قليلا واطرقت مليا . واذا الباب يضرب عليها ، فرفعت راسها واذنت فى الدخول ، ففتح الباب ودخلت الفتيات الثلاث يقدن طه حسين فى رداء جميل واسع الاعطاف لو لم يكن مزين الحواشى بالذهب والفضة واللالىء النادرة لحسبته ذلك الرداء الجامعى الذى يرتديه العمداء فى الحفلات الرسمية الكبرى . وقد غدا الدكتور حليقا وسيما تطمع فى رضاه الجميلات . فتقدمت به احدى الفتيات وقالت :

ـ هاهو ذا يامولاتى قد هيأناه !

نظرت شهرزاد ، ثم انعمت النظر ، ثم قالت كالمخاطبة لنفسها :

ـ مستحيل ماذا فعلتن أيتها الجوارى

هنا راى طه حسين أن من واجبه أن يلقى الضوء على هذا الموقف الغامض وان « يرد الامر الى نصابه » فقال :



« ودخلت الفتيات الثلاث يقدن طه حسين فى رداء جميل »

ـ مولاتى ! انى لست توفيق الحكيم
ـ طبعا ..
ـ انى ...
ولم تطق شهر زاد صبرا فقالت فى حدة :
ـ أوتجرؤ ياهذا على الدخول على بهذا التمويه ؟!
ـ مولاتى عفوا .. انى لست فى حاجة الى التمـــويه .. كما تعلمين
ـ وأين اذن توفيق الحكيم ، وما هذا الزى الذى عليك ؟
ـ سلى جواريك !
فالتفتت شهرزاد الى الفتيات ونظرت اليهن نظرةالمستقسر فقالت احداهن فى لهجة بريئة صادقة :
ـ أليس هذا هو الذى تسلمناه من مولاتى
ـ مطلقا . ايتها الفتيات
فالتفت طه حسين الى الجوارى وقال فى انتصار :
ـ لقد بح صوتى من القول أن فى الامر خطأ . ولـكنهن مضين يصنعن بى مالايصنع !
وعندئذ لم يسع الفتيات الا أن يعترفن بما حدث من هرب توفيق الحكيم والعثور على هذا الذى حسبوه الهارب . ولم يسع طه حسين الا أن يقص قصته وما وقع له بالتمام والكمال من وقت أن خرج من داره الى أن مثل بين يدى شهر زاد فى هذه الهيئة والزى . وختم حديثه قائلا للملكة :
ـ ارأيت يامولاتى ! لقد صدق المثل العامى « من خرج من داره قل مقداره »

ولكنى مع ذلك راض بما كتب لى مغتبط برؤيتك فى النهاية على كل حال !

فضحكت شهرزاد وقالت فى رقة :

ــ أيها الصديق العزيز ! انى آسفة لما وقع لك . وآسفة انى لم ابعث اليك رسولا يحضرك الى بدلا من الكتابة اليك . ولكنك قد حصلت عندى آخر الامر . وانى الآن فى حاجة شديدة اليك

ــ انى خادمك ورهين أمرك

ــ اولا أين هرب واختفى توفيق الحكيم هذا ؟ اريد رايك فى ذلك ؟

ــ ارى يا سيدتى أن تطلقى رجالك فى اثره يبحثون عنه

ــ اين ؟!

ــ ارى ان يبحثوا عنه عند شواطىء البحار والانهار والجداول والغدران كافة . فان السمك وحده الآن هو الذى يعرف مقره

ــ نعم الفكرة . هنالك أمر آخر شديد الخطر اطلب رايك فيه : اتذكر فى رسالتى انى حدثتك عن اشباح أشخاص توفيق الحكيم . انهم هنا الآن يلحون فى طلب راسه . ولا اراهم يبرحون حتى يسلم اليهم . أاسلمه لهم ام أمنعه ؟

ــ مولاتى ! لاهذا ولا ذاك . .

ــ عجبا ! ماذا أصنع اذن ؟

ــ لااعدام بغير محاكمة . ولامحاكمة بغير قضية. فاشترطى عليهم الا تسلميه الا امام محكمة يدلون امامها بما يتهمونه به وما يريدون من اجله راسه

ـ نعم الرأى . نعم الراى . ان آراءك فى نضجها كآرائى فى سن الشباب الاول . لكأنى بك قد نقلتها عنى واستوحيتها منى

ـ كل أفكارى وآرائى مستمدة من ضوئك ياسيدتى !

ـ بقى أمر واحد : من هو القاضى الذى يحاكم صديقنا ؟

هنا يفكر طه حسين مليا ويقلب فى ذهنه الاسماء ثم لايلبث أن يصيح صيحة الفرح والظفر :

ـ وجدته يا مولاتى وجدته . انه القاضى الذى لا يرد حكمه . وهو بعد ليس بالمجهول من المتهم فقد ردد اسمه كثيرا فى كتبه وذكره على أوضاع شتى فى كتاباته

ـ من هو ؟ من هذا القاضى ؟

ـ الزمن !..



محنة توفيق الحكيم

وقد غمرني في محضر شهرزاد من الجمال والسحر ومن الظرف والعطف ، ومن رشاقة الحركة وعذوبة الحديث ، ما انساني صنيع هؤلاء الجواري الماكرات ، وكاد يردني الى الامن والهدوء والى الدعة واللذة ، لولا أن خاطرا ملحا كان يتردد على من حين الى حين فيذهلني بعض الشيء عما كنت أجد من نعيم ، وكأن شهرزاد قد أحست هذا فهي تدق في ظرف يدا بيد ، واذا الفتاة التي أدخلتنا عليها ، في الزيارة الاولى قد اقبلت خفيفة ظريفة كعادتها ، فانحنت ثم استوت ، واذا شهرزاد تسألها ماصنع صاحب الاستاذ . قالت الفتاة في صوت ساحر : هو هنا يامولاتي منذ ساعة ، قلق النفس مضطرب البال ، لا يصدق ما أؤكد له من مكان الاستاذ بين يديك ، ولا يريد أن يطمئن حتى يراه

قالت شهرزاد فأدخليه

ثم التفتت الى الفتاة وانصرفت ، وقالت اظنك تستطيع الآن ان تخلص لي . وهممت أن أجيبها لولا أن عبدها الاسود اقبل مسرعا فقطع علينا الحديث وهو يقول : ادركي اسيرك يا مولاتي فقد أشرف على الخطر ودنا من البوار . قالت شهرزاد في هدوء يملؤه الدل والتيه : وماذاك ؟ قال الاسود اجتمعت على سجنه الاشباح يا سيدتي ، ولولا أني وكلت بهذا السجين اشد من في القصر من أبناء أبي قوة وايدا ، واصلبهم عودا

واقدرهم على المقاومة واصبرهم على الجهاد ، لاقتحم السجن عليه اقتحاما ، ومع ذلك فالاشباح ملحة فى الهجوم تصطنع فيه فنونا من العنف الصريح والمكر المغرى ، ولست آمن أن تظهر على الجند ، فان كانت لك حاجة فى أسيرك فأسرعى اليه فلن يرد الاشباح عن سجنه الا مرآك

□

وكنت قد نسيت توفيق الحكيم وشغلت عنه بما لقيت من شدة أول الامر ، وبما كنت أنعم فيه من لين ذلك الوقت ، فلما سمعت ذكره وعرفت تعرضه للخطر عادت الى نفسى ، فسألت الاسود : وهل ظفرتم به ؟ وكيف وجدتموه ؟

قال الاسود وهو يقاوم الضحك مخافة أن يحفظ مولاته :

ـ اخذناه ياسيدى وأنفذنا فيه قوانين القصر !

قالت شهرزاد :

ـ أو كنت تظن ان ساذجته تغلب مكرى ؟ أو تحسب أن الخروج من هذا القصر ميسر لمن دخله ؟ واذن فأى أمن لشهرزاد وأى سلطان بقى لها ، وأى سحر هذا الذى يحيط بالقصر اذا أتيح لرجل ساذج كتوفيق ان يفر من أهله وينفذ من أبوابه كما يريد ؟

قلت : فانى لم أفر من أهله يا سيدتى ، ولكنى دخلت عليهم القصر ولم يشعروا بدخولى ، وانسبت فيه انسياب الحية ولم يعرفوا مكانى منه . .

قالت وهى تضحك :

ـ فان هذه قصة أخرى لعلها أشد تعقيدا مما تظن ، اواثق انت بأن رسلى ليسوا هم الذين أغروك بالخروج فى طلب القصر ودلوك على طريقة وانتهوا بك وبصاحبك الى هذه الفجوة التى انسللتما منها ؟ ولكن فى الامر تقصيرا من غير شك ..

ثم التفتت الى الاسود قائلة :

ـ والفتيات ماذا صنعتم بهن ؟

قال : انفذت فيهن قوانين القصر يا مولاتى . وهن الآن مشدودات من شعورهن الى السقف فى غرفة العذاب تصب عليهن السياط صبا

قلت مأخوذا : أو تفعلون هذا بهؤلاء الجوارى الحسان ؟!

قالت شهرزاد : كأن قلبك قد رق لهن ، وكأنك نسيت انهن أعرضن عما كان يجب من انفاذ أمرى وفرغن للهوهن . وما ينبغى لمن اتصل بشهرزاد أن يشغل عنها بنفسه . فكيف بهؤلاء الاماء اللاتى لا وجود لهن الا مستمد منى

قلت مستعطفا : رفقا بهن يا سيدتى ، فقد كن ضعافا وقد كن اغرارا ، ظنن وراء الاكمة شيئا ، فلم يجدن الا هواءوغرورا

قالت شهرزاد : واعراضا عنهن وفرارا منهن

قلت : فانى شافع فيهن

قالت : سنرى فى أمرهن ، ولكن لنسرع الى صديقنا الاسير فما ينبغى أن تستأثر به الاشباح الضاربة

ولابد من أن أعيد عليك قصة صديقنا الاسير من بدئها فانك لم تعرف الا آخرها : هو الآن محصور فى سجنه مغلوب على أمره ، تتراءى له الاشباح موعدة منذرة ، ولكنها لا تبلغه

لمكان هؤلاء الجنود السود ، وهو كلما رآها إضطرب من رأسه الى قدميه وجرت الرعشة فى بدنه كله ، فأسنانه تصطك وفرائصه ترتعد وصوته يخرج من فمه هائلا مبهما لا يفهم منه الا شيء واحد وهو انه جزع يستنجد ويستغيث . فكيف انتهى الى هذا السجن ؟ عرفنا ذلك من أمره فيما بعد ، فلا تسل عن ضحكنا منه ولا تسل عن ضحكه من نفسه . وما أظن الا أن هذه القصة التى وقعت له فى دهليز من دهاليز القصر المسحور ستملأ ما بقى من حياته الطويلة ان شاء الله ضحكا وفرقا

سيضحك منها اذا لقى الناس وامن الاعتداء عليه، وسيفرق منها اذا خلا الى نفسه وأشفق أن تنجم له الاشباح من الارض أو تهبط عليه من السقف او تنشق له عنها الجدران

كان اذن يضرب فى دهاليز القصر وقد اتخذ معطفه وقاء من كل شر ، لا يخرج من دهليز الا دفع الى دهليز ، ولا يفصل عن بهو الا ألقى الى بهو ،حتى ضاقت به السبل ، وسدت عليه الطرق ، وكان قد منى نفسه بالافلات وزين لها النجاة ، وكان قد اخذ ينعم بأول الانتصار ويرى انه قد خلص من هؤلاء الفتيات الحسان وأمن عبثهن بجسمه وعقله معا . ولكنه يمضى فى الابهاء ويدور فى الدهاليز دون أن يجد مخرجا الى النور حتى طال عليه الوقت واشتد عليه الكرب وثقلت عليه المحنة ، وعظم فى نفسه البلاء . وانه لفيما هو فيه من السعى الذى لا يكل والدوران الذى لا يجدى ، واذا بصيص من نور ضئيل يخلص اليه من بعيد فيخيل اليه انه قد وجد خيط

اريان ، ويرى نفسه غريقا قد اتيحت له خشبة النجاة فهو يتعلق الى هذه الخشبة بيديه ورجليه وأسنانه . وهو يتبع هذا النور الضئيل وقد عقد به امله كله ، ووصل به نفسه كلها . وهو يجمع ما بقى له من قوة ويجرى فى أثر هذا النور حتى ينتهى الى فرجة ضيقة فى الجدار فيدخل نفسه فيها ويجاهد ويحتال حتى ينفذ الى ما وراء الجدار . واذا هو فى فضاء واسع يضطرب فيه نسيم بارد قوى يرد اليه بعض ما فقد من قوته . وكان خليقا وقد خرج الى الفضاء الطلق خائر العزم منهوك القوى أن يتهالك على الارض ليستريح ، ولكنه يمضى أمامه وقد أسلم ساقيه للريح واقسم فى دخيلة نفسه الايطمئن ولا يستقر حتى يبعد عن هذا القصر البغيض والفضاء امامه واسع عريض قد اختلطت أرجاؤه واطبقت عليه ظلمة كثيفة يخترقها بين حين وحين هذا النور الضئيل ، فيتبعه صاحبنا جادا فى ذلك كل الجد ، ومايشك فى أن قدرة الله قد ارسلت اليه هذا الشعاع فرجا من حرج ، ومخلصا من ضيق ، ولكنه يقف فجأة فى شيء من الذهول والدهش كانه قد أحس شيئا من طريق السمع أو من طريق البصر . فاذا مضت عليه لحظات قصار زال عن نفسه الشك وفارقها الريب ، فهو يحس شيئا من طريق السمع والبصر معا . يرى بناء متواضعا قد قام منه غير بعيد ، أو يخيل اليه ان شخصا ماثلا قريبا من هذا البناء ، ويسمع صوتا تحمله اليه الريح لا يفهمه أول الامر ولا يثبته ، ولكنه يصغى اليه ثم يدنو منه فاذا هو يسمع ويثبت ويفهم ويعى ، واذا هو دهش قد

كاد يفقده الدهش رشده ، وذاهل قد كاد يغلبه الذهول على ما بقى له من صواب ، انه يسمع صوتا عربيا يتغنى غناء عربيا ، فاذا أطال الاصغاء ، خلص اليه من هذا الغناء شعر عربى فصيح ، هنالك ينكر الرجل نفسه ، ويتهم حسه ، ولا يكاد يشك فى أن أطيافا من هذه الاطياف التى تملأ الجو قد مكرت به واحتالت عليه ، حتى أوقعته فى شر مما فر منه، ذلك أنه فى فرنسا فى اقليم سفوا العليا ، فاذا أتيح له أن يسمع صوتا يتغنى فى ظلمة الليل فأقصى ما يمكن ان يكون هذا الصوت فرنسيا يتغنى شعرا فرنسيا . ولكن ماذا ؟ انه ليس مجنونا ولا مختلط العقل ، فهو يسمع غناء ، وغناء عربيا فصيحا يملؤ عليه الجو من حوله ويدعوه ، نعم يدعوه ويلح عليه فى الدعاء والاغراء ، انه يتبين الالفاظ التى يسمعها ، انه يحفظها، انه يعيدها على نفسه ، انها تقع من قلبه الجاف المحترق مواقع الماء من ذى الغلة الصادي . انها ملات قلبه ونفسه ، انها ملكت عليه أمره ، انها قد استهوته استهواء ، واستفوته استغواء ، ان هذا الغناء يصل الى أبيات من الشعر لا يكاد ينتهى اليه البيت منها حتى يعيده كما سمعه كأنه صبى يعيد على معلمه ما يلقى عليه من الكلام :

اهلا وسهلا بخائف يمشى مستوحش هارب من الوحش

نعم أنا والله هذا القادم ، انى لامشى فى هذا الفضاء العريض مستوحشا ، وما هؤلاء الفتيات اللاتى هربت منهن الا وحشا من وحش الجن لا من وحش الانس

فر من القصر وهو يجهل ما دبر من حيلة ومن غش

نعم والله ، لقد فررت من ذلك القصر البغيض وما أدرى ماذا دبر لى كيد شهرزاد ومكر طه حسين

اقبل فعندي لك الامان وما يدنيك فورا منأرض سالنش

لبيك لبيك ، هأنذا آمن من الخوف ، فاحملنى الى سالنش، الى فندق مون جولى ، فقد بعدت عنه وقد اشتقت اليه ، انى لمتعب ، انى لمكدود ، ما أشد حاجتى الى الراحة .

ان شئت نوما فعندنا سرر وثيرة فرشهـا من القش

من القش ، أو من الحطب ، أو من الخشب ، أو من الحجر ، النوم ! النوم ! انى أريد أن انام لافلت من هذه الاحلام المروعة

او شئت شربا فان بيرتنـا تملا رأس النـديم بالوش

لقد نضب ريقى ويبس حلقى ، وجف لسـانى حتى كأنه الحطب ، بيرة سالنش فى تلك القهوة الصغيرة ، قهوة الجبل الابيض التى كنت أخلو فيها الى نفسى والى القدح والقرطاس سبع ساعات كاملة

او شئت اكلا فان جبنتنـا لا يأتلى دودها مـن النغش

كاممبير ، ركفور ، روبلوشون ، جبنة مصر ، يجب ان أكون نائما فما ينبغى ان يكون ما أسمع وما أحس الا حلما

والحبعندى كما اشتهيت له بيض عظام قريبة الفقش

هنا يمتلىء فم صاحبنا بضحك عريض متهلل وتنطلقساقاه فى الريح، لقد أيقظه هذا البيت ونبهه، لقد عرف هذا الصوت، انه صديقه طه حسين قد أقبل يخلصه وينجيه ، ان هـذا البيت يذكره بذلك السؤال الذى القاه ذات ليلة على المائدة حين قدم له لون من الطعام يسميه الفرنسيون بئر الحب ،

واراد ان يسأل أيدخل البيض فى تكوين هذا اللون . فقال : أفى الحب بيض . فضحكت الجماعة ، وأجابه صديقه طه حسين نعم فيه بيض يفقس عن فروج ، هو اذن طه حسين قد طالت عليه غيبتى فأقبل يبحث عنى ويستنقذنى

أصـــحـــابنا كلهم ذوو بله تأمن منهم مـــرارة القفش

انه لطه حسين ما أشك فى ذلك ، انه يطمئننى ويهدىء روعى ، وينبئنى بأنه لن يعبث بى ولن يتندر على كلما هفوت فى حركة أو حديث

حيـــاتنا لو علمت ناعمـــــة لم يلقها قط عاهـــل الحبش

الحبش ! وما خطب النجاشى فى هذه القصة ؟ لقد علمت انه كان فى لندن ، ثم ذهب منها الى جنيف ، ثم عاد منها الى لندن ، فمالى وللنجاشى ، ألا ازال مختلط العقل ، أنائم أنا كاليقظان ! ايقظان أنا كالنائم

أقـــل ما فى أقلهـــــا سمك يسبـــح فى بركة مـــن المش

سمك ! بركة ! مش ! فقد أتيح لى اذن كل ما أنا محتاج اليه . أستطيع ان أصيد وأستطيع أن أسبح واستطيع ان ارتوى

اقبل أعنا على الهموم فقـــد ضقنا ذراعا بالكنس والرش

كلا . كلا . لست يقظان بل أنا نائم ، لست نائما بل أنا يقظان . لست عاقلا بل أنا مجنون ، لست مجنونا بل أنا عاقل . ماذا أسمع ؟ الكنس والرش ، ان طه حسين لا يكنس ولا يرش ، ولكنه يقرأ المتنبى ويتحدث عن شهرزاد . أين أنا ! ماذا دهانى ماذا أصابنى ! ثم تنحدر من عينيه دموع غلاظ ساخنـــة .

ولكن يدا ضخمة عريضة ثقيلة تنقض على كتفه ، وصوتا غليظا اجش يقول له فى نبرات مرتعشة يرتعش لها الفضاء من حوله ويرتعد لها جسمه النحيف : هون عليك فما بك من بأس

هنالك يصيح الاسير الهارب : من انت ؟ ألست طه حسين ؟

فيجيب الصوت الغليظ الاجش : كلا يا سيدى ، ولكنى رئيس الشرطة فى القصر المسحور . علمت بفرارك ولم ارد ان آخذك أخذا عنيفا ، فمددت لك أسباب الامل وزينت لك طريق الهرب حتى انتهيت الى ما كان يجب ان تنتهى اليه من الاذعان لسلطان شهرزاد . والامور كلها تجرى فى هذا القصر المسحور على نحو من هذه الدعابة الحرة التى تظهر قاسية بعض القسوة ولكنها لينة كل اللين . فلا تخف ولا تحزن واستقبل أمرك راضيا مطمئنا فما ارى الا أنه سينتهى الى ما تحب وترضى . قال ذلك وقاد الاسير الى هذا البناء المتواضع ، حتى اذا تجاوز الباب نظر توفيق فاذا سرير عليه وسائد من القش قد هيىء له كأنما يدعوه ليستريح . قال توفيق وقد اختنق صوته بالبكاء : ماذا تريدون أن تصنعوا بى ؟

قال رئيس الشرطة : نريد أن نريحك شيئا فقد اجهدك الهرب ، ونريد أن نطعمك فقد اضناك الجوع ، ونريد ان نسقيك فقد الح عليك الظمأ ، ونريد أن نرضيك ونرفه عليك فنعود بك الى غدير لا يفلت منك سمكه . ثم نريد بعد هذا كله أن نردك الى مولاتنا شهرزاد لترى فيك رأيها ، وماأظن الا أنها ستدفعك الى فتيات أخريات ملاح أو قباح ، يصلحن من أمرك ثم يعدنك

اليها خليقا ان تكون لها سميرا ، فان شهرزاد ان قضت شيئا لم يرد قضاءها الا الله

سمع توفيق هذا كله فخر على سرير القش لا يعى شيئا ، أكان نائما ؟ أكان مغشيا عليه ؟ ولكنه أفاق بعد لحظة فاذا هو فى مكان مظلم ينفذ اليه نور ضئيل شاحب تمنى بعد لحظة لو لم ينفذ اليه . فقد استطاع أن يتبين بفضل هذا النورجوه ثلاث من الاماء السود كأقبح ما خلق الله وكأبشع ما عرف الناس ، وقد انحنين عليه فى رفق أيسر من العنف ، وابتسام اجمل منه العبوس ، وهن يداعبنه بأصوات منكرة ويمسحن وجهه وعنقه بأيد خشنة تجرى فى جسمه قشعريرة فظيعة وهو يصيح بهن : من أنتن ! ما خطبكن ! ماذا تردن منى ! اليكن عنى ، وكأن زجره لم يكن الا اغراء فهن يقبلن عليه ويدنين منه، ويبسمن له عن أنياب كأنها أظفار السباع ، ويمددن اليه شفاههن البشعة المنكرة يظهرن الرغبة فى تقبيله وهو يلتمس معطفه ليتقيهن به فلا يجده، وهو يهم أن ينهض ليعدو هاربا فلا يستطيع لانه يحس فى رجليه ثقل القيد ، واذا هو يتقيهن بالوسائد يحمى بها منهن وجهه ، ولكن ايديهن الخشنة تعمل فيما بقي لهن من جسمه عملا ثقيلا طويلا مؤذيا ، حتى اذا بلغ منه الجهد وادركه الاعياء وكاد يعود الى النوم او الاغماء تفرقن عنه لحظة ثم أقبلن عليه وقد ثاب اليه شيء من رشد وقوة فأجلسنه مترفقات وقدمن اليه طعامه وشرابه من جبن كاممبير وبيرة سالنش . فيسرع الى ما قدم اليه من ذلك اسراع النهم الشره الذى انهكه الجوع . وما يكاد يفرغ من

طعامه وشرابه ويسترد حظا من رشده وصوابه ويبدأ التفكير فى امره كيف ابتدأ والام انتهى ؟ حتى يرى رئيس الشرطة مقبلا عليه ومن ورائه غلام اسود نحيف ولكنه حسن الطلعة يحمل ادوات الصيد كاملة . فاذا رأى توفيق ادوات الصيد عاد اليه نشاطه وجرت على وجهه المتعب الشاحب ابتسامة حلوة فيها سذاجة الطفل البرىء ، وهم ان ينهض ولكن القيد يثقل رجليه فيثوب الى نفسه حزينا مبتئسا ، ولكن صاحب الشرطة يدنو منه متلطفا له فيحط عنه القيد ويخلى بينه وبين الحركة والنشاط

ونهض الاسير سعيدا بهذه الحرية التى ردت الى رجليه ، مغتبطا بهذه النزهة التى تهيأ له عند غدير يصطاد فيه السمك ، معجبا بذكاء هذا الغلام الاسود النحيف الرشيق الذى لم ينس من ادوات الصيد ما تعود هو ان ينساه ، فاحتمل معه سلة رحبة كأنه ينتظر أن يصطاد سمكا كثيرا ، ولكن توفيقا عندما حدق فى هذه السلة الرحبة عاد اليه الشك وابتسم فيما بينه وبين نفسه والتفت الى رئيس الشرطة قائلا : « اجادون انتم فى امر هذا الصيد ام لايزال عبثكم بى متصلا ؟ » قال صاحب الشرطة : « هلم ياسيدى ، سترى عندنا وتفهم ما لا تريد ان ترى ولا تفهم من ان حياة الناس مزاج من الجد والهزل لاتخلص لأحد الامرين » . قال توفيق وهو يتبع صاحب الشرطة والغلام يتبعه : ما رأيت كالليلة جدا وهزلا ، وقسوة ولينا ، وعبثا وفلسفة . ومضى صاحب الشرطة امامه يتبعه توفيق والغلام يتبعهما ، حتى اذا

مشوا دقائق وقف صاحب الشرطة عند باب ، ثم ادار فى الباب مفتاحا فانفتح له ثم دخل وقال لتوفيق اتبعنى ياسيدى. فلم يكد توفيق يخطو امامه خطوات حتى ارتد مسرعا وقد اشاح بوجهه وقد وضع يديه جميعا على انفه وفمه . قال صاحب الشرطة : اتبعنى ياسيدى . قال توفيق الى أين ؟ قال صاحب الشرطة الى الصيد ! قال توفيق اى صيد ؟ قل الى الموت : ما هذه الريح الكريهة القاتلة ؟ قال صاحب الشرطة وهو يضحك ! انها الريح التى تحبها وتكلف بها ، ريح الجبن . لقد اكلت منه حتى عفته ، فمالى وللجبن ، واين يكون الجبن من الصيد ؟ قال صاحب الشرطة وهو يلح فى رفق : اتبعنى ياسيدى واعلم ان المزاح فى قصر شهر زاد لايكذب ابدا . انسيت البيت الذى استهواك منذ حين :

اقل ما فى اقلها سمك

قال توفيق :

يسبح فى بركة من العسل

قال صاحب الشرطة : هذا كلام تقرؤه فى ديوان المتنبى مع صديقك طه حسين . وكنت خليقا ان تصطاد سمك السكر واللوز من بركة العسل لو لم تخالف عن امر شهر زاد . فأما وقد فعلت ، فستصطاد الفسيخ والرشال والسردين من بركة المش . ثم احس توفيق كأن قوة خفية تحمله وتدفعه الى الامام ، ونظر فاذا هو قد شد الى كرسى من الخشب واجلس الى حوض طويل عريض يضطرب فيه سائل كدر كريه ويلعب فيه سمك مختلف الالوان والاحجام . واذا

اداة الصيد فى يد توفيق ، واذا صاحب الشرطة يقول له فى اناة وهدوء ، تستطيع ان تلهو بالصيدحتى نأتيك. ثم ينصرف عنه وينصرف عنه الغلام . ويهم توفيق ان ينهض ليتبعهما فلا يستطيع لانه قد شد الى كرسيه شدا . على ان محنته هذه لاتطول ، فقد اصطاد سمكتين او سمكات ، وكان كلما اخرج واحدة منها وهم ان يخلصها من السنارة وثبت اليه هذه تعلق بأنفه ، وهذه تعلق بخده ، وهذه تعلق باحدى اذنيه ، وانه لفى هذا الكرب العظيم والعذاب الاليم ، واذا ضجيج يسمع من بعيد ثم يدنو شيئا فشيئا ثم يعظم حتى يملأ الجو ، واذا صاحب الشرطة يقبل ومعه جماعة من الجند فيحملون توفيقا وقد خارت قواه ويسعون به مسرعين الى حيث يلقونه القاء فى هذه الحجرة التى تهاجمها الاشباح وتقوم دونها الجنود السود . وقد ادركته شهر زاد وانا معها ولم يبق فيه الا رمق من حياة ، فلم تكد الملكة تدنو من السجن حتى انحاز عنه الاشباح ناحية واقاموا مع ذلك ملحين يطلبون راس هذا الاسير الذى اساء اليهم فى انفسهم وكرامتهم واعراضهم ، ويقسمون لايريمون حتى يبلغوا منه مايريدون. قالت شهر زاد فى صوت كأنه حديث الورد النضر ، ان كنت قد سمعت للورد النضر او البلابل حديثا ، عودوا الى مكانكم من القصر ، فسيكون لى معكم حديث ، ولكم على الا تنصرفوا الا راضين

سمع الاشباح هذا الحديث الحلو من ذلك الصوت العذب ، فانصرفوا فى اناة وهدوء ، وهمت شهر زاد ان تعود ادراجها

ولكنى قلت لها مستعطفا : والاسير ياسيدتى ؟ الم يأن لك ان ترديه الى ما انت اهل له من العفو والفضل ؟ قالت بلى ، ولكن بعد ان يأخذه الفتيات الحسان فيصلحن من امره ويعدنه الى كما اريد ان يكون . وما اتمت هذه الجملة حتى اقبلت الفتيات الثلاث الحسان مستخذيات يسعين على استحياء ويخفضن رؤوسهن ذلا وانكسارا . فأخذن توفيقا واحطن به وانصرفن معه الى الحمام

وتعود شهر زاد وانا معها الى حيث كنا نأخذ فيما كنا فيه من حديث المحاكمة لهذا الاسير البائس ، ونلتمس الحيل والوسائل الى استنقاذه من هذه الاشباح الضارية والارواح الباغية ، وانا اهون الامر على شهر زاد وأؤكد لها ان الزمان قاض عدل حازم لايعرف الضعف ولا الظلم الى نفسه سبيلا، تتغير الاشياء من حوله وتتبدل الظروف وتلتبس اخلاق الناس ، ويتنكر الاحياء للأحياء ، ويتنكر الاموات للاموات والاحياء ايضا ، تنقضى الدول وتقوم مكانها دول اخرى ، وتثل العروش وتبني مكانها عروش اخرى ، ينتظم امر الناس ويضطرب ، وتجتمع كلمتهم وتفترق ، والزمان كما هو ثابت مستقر لايحول ولايزول . وان توفيقا لم يقدم على ما اقدم عليه حين كتب قصته الا وهو عالم بما يأتى وما يدع ، مقدر لما سيلقى من نقد ، متهيء لاحتمال ماسيتعرض له من تبعات ، وهو قد ثبت للاحياء فليس عليه خوف من الاموات . وانا لفى هذا الحديث واذا شهر زاد تبعث من فمها الظريف الدقيق آهة الفرحة المرحة المبتهجة الطروب ، فقد انفرجت الاستار

الجانبية عن توفيق الحكيم وهو اجمل منظرا وابهى طلعة مما يستطيع اصدقاؤه ان يتصوروا مهما تذهب بهم الظنون

والفتيات الثلاث الحسان يعلمن وحدهن ماذا انفقن من جهد وماذا سلكن من حيلة ليردن توفيق الحكيم الى شهر زاد شابا وسيما انيقا رائع الجمال . ومن يدرى لعله يقص عليك سيرته معهن او سيرتهن معه حين يكتب مذكراته فى يوم من الايام



في حضرة شهرزاد

القى توفيق الحكيم على المكان نظرة ذاهلة حيرى ، واذا عيناه تقعان على شهر زاد الجميلة بين وسائدها الحريرية الموشاة بالذهب والفضة كأنها الشمس بين النجوم ، وقد مثل بين يديها الدكتور طه حسين يتألق فى ثوبه المزركش ووجهه الوضاء كأنه القمر . فما تمالك الاسير ان صاح :

يا للعجب ! طه حسين ايضا ، حليقا رشيقا ، وسيما انيقا !

شهر زاد : ينبغى لمن دنا منى ان يكون كذلك

طه : (فى خيلاء) او يعيش الى جانب شهر زاد الا من مسته يد الجمال ؟ !

توفيق : كلام جميل !.. لكن ما قولكما ...

شهر زاد : تكلم ايها العزيز !

توفيق : أمن الجمال ماصنع بى صاحب شرطتك ياسيدتى العزيزة !

طه : (يضحك ضحكا قويا) ماذا صنع بك ؟

توفيق : اتضحك ؟ !

طه : قص علينا ماجرى لك بالتمام والكمال

توفيق : وانت قص على بالتمام والكمال سر هذا الضحك الذى لا افهم له معنى !

طه : اما انا فأفهم له معنى بديعا !

شهر زاد : (باسمة) وانا كذلك افهم له معنى رائعا !

طه : (مترنما باسما) :

ان شئت نوما فعندنا سرر وثيرة فرشها من القش
او شئت شربا فان بيرتنا تملأ راس النديم بالوش
او شئت اكلا فان جبنتنا لا يأتلى دودها من النفش

توفيق : (وهو كظيم) لابأس !

شهر زاد : (تستطرد مترنمة باسمة) :

والحب عندى كما اشتهيت له بيض عظام قريبة الفقس
حياتنا لو علمت ناعمة لم يلقها قط عاهل الحبش
اقل ما فى اقلها سمك يسبح فى بركة من المش

توفيق : (فى تقطيب) مرحى ! مرحى ! ارى انكما على علم واسع بكل ما وقع وكان ...

طه : امر واحد لاندرى عنه شيئا

شهر زاد : نعم اخبرنا ما فعلت بك الفتيات فى الحمام ؟

توفيق : فتياتك ياسيدتى خليعات وما كان من امرهن معى ليس مما يحسن ذكره فى حضرة الملكات !

طه : (فى ضحكة خبيثة) اكان الماء باردا أم دافئا ؟

توفيق : كان كل شىء باردا ! استرحت الآن ؟ واستراحت جلالتها ؟ !

شهر زاد : وا اسفاه ! انك قد غضبت . ونحن لا نحب لك ان تغضب ؟

توفيق : وماذا تحبين لى ياسيدتى ؟

شهر زاد : كل الخير

توفيق : يا لك من ملاك طاهر !

طه : (فى خبث ومكر) اتتهكم على مولاتنا !

توفيق : سبحان الله فى طبعك يادكتور ! انك تلقى الكلمة فتحرج بها المواقف ! وتعقد المسائل ، ثم تقول عنى بعد ذلك انى رجل معقد !

طه : (فى قوة) انا صريح . القى كلمة الحق صريحة !

شهر زاد : نعم . وهو يلقيها فى جراة ولا يخشى فيها لومة لائم . ومن اجل ذلك احبه

توفيق : هنيئا لك به ! وهنيئا له بك !

شهر زاد : عجبا من العجب ! ادرك بين نبرات صوتك . .

طه : وانا ايضا ادرك . .

توفيق : ماذا تدركان ايها الصاحبان المتفقان ؟!

شهر زاد : نبرة تنم عن غيرة خفية اذ قلت انى احبه !

توفيق : دخلنا منطقة الكلام الفارغ الذى لاتحذقه غير المراة !

طه : (صائحا) استغفر الله ! استغفر الله

شهر زاد : (لطه) دعه ! فان عداوته للمراة سوف تكلفه ما لا يطيق

طه : اريد ان القى كلمة صريحة ولكنى اخشى ان يقول عنى . . .

توفيق : (مسرعا) اياك ان تلقى شيئا . اهون على نفسى ان القى انا فى بركة « المش » مرة اخرى من ان تلقى انت فى امرى كلمة حق ، او ان تلقى امامى شهر زاد كلاما فى الحب والغرام !. .

شهر زاد : ياصديقى ! اود لو افضيت الى بسر ...

توفيق : ليس عندى سر ...

شهر زاد : هذا الفتور والنفور بينى وبينك اليوم ؟

طه : ما من سر غير انه مثل اغلب الشعراء واهل الفن يلفظ النعمة ثم يبكيها !..

شهر زاد : (لتوفيق) استبكينى غدا ؟ !

توفيق : (يصمت ثم يفكر قليلا وينظر الى شهر زاد قليلا ويهمس) ربما ، انى من فصيلة لاتغرد الا فوق اطلال نعمة ذاهبة وآثار هناء ضائع !

شهر زاد : نعم ، هو مرض الشعراء والفنانين ! وانشئت فهو ناموسهم الطبيعى . كم ارثى لاولئك الاشقياء البائسين !

توفيق : يعجبنى رثاؤك الحار هذا ياسيدتى !.. توقعين الناس فى البلاء ثم ترثين لحالهم !

شهر زاد : من اوقعت فى البلاء ؟

توفيق : لا اريد ان ابعث الماضى فأذكر لك شهريار وقمرا وغيرهما ممن تتراءى لى اشباحهم اليوم ثائرة على . انما اريد ان اذكر لك رجلا ماثلا امامك وبلاء لم يمض على وقوعه غير قليل !

شهر زاد : انت ؟

توفيق : نعم

طه : اتسمحان لى ان القى بكلمة حق صريحة ...

توفيق : اقسم بالله ثلاثا ان نطق طه حسين بكلمة حق او باطل لاقذفن بنفسى من النافذة !

شهر زاد : (لطه) انتظر هنيهة ياعزيزى حتى تهدأ نفس صديقنا !

طه : قد سكت ...

شهر زاد : انك تحسبنى انا التى امرت بك صاحب شرطتى ورجالى !

توفيق : وهل فى هذا القصر آمر ناه سواك ؟

شهر زاد : انك تبالغ فى مقدار أمرى ونهيى !

توفيق : يا للعجب ! اهذا صحيح ؟ !

شهر زاد : ثق ان هـذا صحيح . وانى لم احب لك كل ما صنع بك . ولو استطعت ان امنعك وأدرأ عنك لفعلت. قلبى مفعم بالخير والحب . ولكن سلطانى قاصر ...

توفيق : ايطلب الى انا ان اصدق هذا الكلام ؟ انت الملكة العظيمة صاحبة الحول والطول فى قصرك هذا على الاقل !

شهر زاد : ثق ان الملوك بل الآلهة لايستطيعون دائما ان يصنعوا كل ما يشاءون !

توفيق : وما قيمة ذلك الاله الذى لايستطيع ان يصنع كل مايشاء !

شهر زاد : وهل يتصور كون منظم يديره اله يستطيع ان يعبث بكل ما يشاء وقتما يشاء ؟ !

توفيق : (يلتفت الى طه) ما رأيك ياصديقى الدكتور ؟

طه : عجبا لك ! الآن تطلب الى الكلام ؟ فى هذا الموضوع الشائك حيث يجب على السكوت !

توفيق : (لشهر زاد) ارجو منك ياسيدتى ان تطلبى الى

صديقك الجرىء ان يلقى الآن كلمة حق صريحة !

طه : (لشهر زاد) كلا ياسيدتى العزيزة لا تفعلى . انى الآن عميد مسئول . ولا شأن لى بالكلام فى الاديان والآلهة ، وحسبى ما حدث لى قديما ...

شهر زاد : (لطه باسمة) يظهر ان صديقنا ليس ساذجا الى الحد الذى نظن

طه : قلت لك انه معقد

توفيق : (لطه) اانا معقد لانى طلبت رايك فى موضوع دقيق ؟

طه : استعود اليه ؟ رجائى الخالص منك ان تترك آلهة الاغريق والرومان وشأنهم !

توفيق : ان شهر زاد هى التى ذكرت الآلهة ، وما اردت منها الا ان تذكر لى صاحب الامر الاعلى فى هذا القصر

طه : نعم ، تكلما فى شئون هذا القصر

شهر زاد : فى هذا القصر وفى غير هــذا القصر ، هنالك سلطان اعلى يخضع له كل كائن حى وغير حى ، وكل خالق وكل مخلوق

توفيق : من هو هذا السلطان ؟

شهر زاد : القانون

توفيق : واى قانون هذا الذى امر بتعذيبى اليوم ؟

شهر زاد : قانون القصر

توفيق : ومن سن هذا القانون ؟

شهر زاد : انا

توفيق : او تخضعين له ؟
شهر زاد : لامناص لى من الخضوع ، والا اختل نظام القصر وحلت فيه الفوضى
توفيق : يا للعجب ! اعرف حكومات شتى تسن القوانين ولا تخضع لها ...
طه : حقا .. اذكر ان قوانين الجامعة ... (ثم يسكت فى الحال)
توفيق : تكلم !
طه : كلا ... لاشىء ...
شهر زاد : (فى سخرية) نعم ان البشر لهم هذا الامتياز على الآلهة . فهم يستطيعون ان يعبثوا بالقوانين التى يسنونها . اما الآلهة فلا يستطيعون مطلقا ان يحيدوا قيد انملة عن النظام الذى وضعوه والقانون الذى خلقوه !
توفيق : (فى اعجاب) انهم آلهة !
شهر زاد : وبعد ؟ ارايت ياعزيزى كيف انى بريئة مما الم بك ، وان قلبى لايمكن ان يحل فيه غير الحب والصفاء !
توفيق : وان ما نزل بى هو من فعل القانون ؟
شهر زاد : هو ذاك
توفيق : ربما كنت صادقة . انى دائما يخيل الى ان العظمة فى عليائها لاتعرف غير الصفاء . ولا اتصور خالقا ينظر الى مخلوقاته نظرة غير نظرة الصفاء العميق !
طه : هذا كلام طيب . وما دمنا فى صدد الصفاء ، فما يمنعنا الآن من ان نعمر قلوبنا به . وان يقبل احدنا على

الآخر باسم الثغر صادق الود
شهر زاد : لا احب الى نفسى من هذا !
توفيق : وانا ايضا ... لا احب الى نفسى منه
شهر زاد : (فى فرح) حتى انت ! ؟ لا اصدق ما اسمع
توفيق : يا للعجب ! ماظنك بى ؟ اترينني بهذا المقدار انسانا لايعرف الود ؟ !
شهر زاد : كدت اظن هذا
طه : االقى كلمة حق صريحة ؟ !
توفيق : الق الآن ما شئت
طه : انى اعرف توفيق الحكيم احفظ الناس للود ...
توفيق : اتتهكم ؟
طه : (مأخوذا) سبحان الله ! احكمى ياسيدتى بالعدل ! اانا تهكمت الآن ؟
شهر زاد : على النقيض .. ان فى صوتك صدقا واخلاصا
توفيق : (فى خجل وندم) انى آسف . لقد اسأت الظن بصديقى ... ولم اصدق ذلك القول منه
شهر زاد : لو عرفت ما يصنع صديقك من اجلك ... انه لم ينقطع عن التفكير معى فى التماس الحيل وتدبير الوسائل الى استنقاذك من هذه الاشباح الثائرة عليك
توفيق : اهو صنع هذا ؟
شهر زاد : انه فعل اجمل من هذا . انه رأى اقناع الاشباح بالامتثال الى حكم « الزمن » فيك . وهو واثق ان كلمة هذا القاضى ستنصفك وتنصرك عليهم جميعا

توفيق : واذا لزم الزمن الصمت ولم يتكلم فى أمرى بخير او بشر ؟

شهر زاد : انه قد دعى الى الكلام والحكم ، فى مجلس تحضره انت ويحضره المطالبون براسك والشهود العدول وقد وعد بالكلام والحكم فى الامر

توفيق : المطالبون براسى !

شهر زاد : او لا تعرف انهم طلبوا راسك ؟ !

توفيق : وما ذنب راسى ! اخزاهم الله !

شهر زاد : الم يخرجوا منه ! انهم يريدون تحطيم المكان الذى خرجوا منه على تلك الصورة التى لاترضيهم ؟ !

توفيق : وكيف يحطمونه !

شهر زاد : « الجلاد » قال انه سيتولى ذلك فهى مهنته

توفيق : ذلك « الجلاد » العاطل !

شهر زاد : ان امرك الآن رهن هذه « القضية »

طه : انها ستكون قضية « الفكر والادب »

شهر زاد : ينبغى ان تستعد للدفاع عن نفسك

توفيق : والقاضى ...

شهر زاد : قلت لك هو « الزمن »

طه : اظنك لا تطمع فى اعدل منه !

توفيق : ومتى يوم المحاكمة ؟

شهر زاد : لم يحدد بعد . فقد رأى القاضى ان يبدأ بدرس موضوع القضية . وقد طلب نسخة من « الكتاب » فأرسلت اليه

توفيق : كل هذا عجيب . وكل هذا لم يكن فى الحسبان. انا الذى جاء الى جبال سافوا طلبا للراحة والهدوء ؟

طه : اصبر ! لئن حكم « الزمن » لك فأى انتصار يكون وقتئذ للفكر وحرية الفكر ! وعند ذاك ننشر هذا الحكم فى الصحف معلنين انتهاء عهود الظلام وابتداء عهد النور !

توفيق : واذا حكم بتسليم راسى الى ذلك الجلاد الذى باع سيفه لصاحب خان يحرق فيه القنب ويؤمه انصاف المجانين !

طه : كلا .. ان ايمانى كبير بحكمة هذا « القاضى »

توفيق : وانا ... مع الاسف ...

ولم يتم توفيق الحكيم عبارته . فقد هبت فجأة ريح عاصفة خلعت استار النافذة ودخلت القاعة محملة بغبار كثيف فى لون الرماد ، القته على فرش « شهر زاد » كما يلقى الشيء .. ثم خرجت الريح من حيث جاءت وهذا المكان كأن شيئا لم يحدث قط . ونظرت شهر زاد الى فرشها . فاذا الرماد عليه قد اتخذ هيئة الخطوط والحروف واذا هى رسالة تقرأ موجهة اليها . فطالعتها بامعان ثم صاحت :

ـ تلك رسالة من « الزمن » !

طه : (فى جد واهتمام) ماذا يقول فيها ؟..

شهر زاد : (فى كآبة) وا حزناه !

طه : (فى قلق) بحقك ماذا ؟

شهر زاد : انه لايريد ان يبقى المتهم طليقا . ويعلن انه سيأمر به فيحبس حبسا احتياطيا حتى يصدر فيه الحكم

توفيق : (لطه متهكما) ارايت « حكمة » هذا القــاضى الذى جئتنى به !

شهر زاد : صبرا ولا تخف !

طه : (لشـهر زاد) واين يكون الحبس ؟

شهر زاد : فى مكان لايعرفه غير « القاضى »

طه : وكيف يقاد المتهم الى ذلك المـكان ؟

شهر زاد : ربما امر به الزوابع فاختطفته !

توفيق : (صائحا) خطف آخر !.. حرت والله وكدت اجن لامر هذا الخطف . الا يعرفون وسيلة اخرى فى هــذا المكان غير هــــــذه ! اذا طلبت للمسامرة اخطف ، واذا طلبت للمحاكمة اخطف ! الا نكون فى امريكا دون ان نعلم ؟ !



القلق على توفيق الحكيم

قلت وقد نهضت متثاقلا كئيبا ، فهل تأذنين لى ياسيدتى فى ان اودعك الآن لا قاليا ولا ساليا . قالت فى هذه السرعة وما يعجلك . قلت فان لى ياسيدتى اهلا ماينبغى ان تطول عنهم غيبتى . قال توفيق فى غضب وخبث وعملا ما ينبغى ان يطول اهمالك له . قلت فى ضحك ورثاء هو ذاك . قالت شهر زاد نعم هو ذاك ، ان لاهلك عليك حقا وان لعملك عليك حقا ، فأما الذين ليس لهم فى فرنسا اهل ولا عمل ...

قال توفيق : فمن الممكن ان يخطفوا وان يسجنوا وان تلح عليهم المصائب وان تفعل بهم الافاعيل . قالت شهر زاد وقلت معها ضاحكا هو ذاك . قال توفيق فى صوت محزون تكاد تخنقه العبرة : لست جادا فيما تعزم عليه من الانصراف. قلت كل الجد ، وانك لتعلم انى لا استطيع البقاء ، ولست ادرى فيم حرصك على بقائى . قال اما انا فأعلم فيم حرصك على الانصراف ، انما تريد ان تتركنى وحيدا اقاسى ما اقاسى من الجهد واحتمل ما احتمل من الهم والقى ما القى من العناء . قالت شهر زاد : شكرا لك ياسيدى ما اعرف ادبا اجمل من هذا الادب ولا ظرفا ارق من هذا الظرف . قال توفيق مرتبكا : سيدتى انك لتسيميننى ما لا يسام ، ولست افهم كيف تنتظرين الادب والظرف من رجل مثلى قد صبت عليه المحن ، مخطوف يراد به الخطف ، وسجين يراد به السجن ،

وأسير كان يطمع فى حريته فاذا اقصى آماله سجن جديد لايعرف اين يكون ولا كيف تكون حاله فيه . قلت هون عليك فلست ارى بك بأسا ، ولو كنت مكانك لنعمت بالساعة التى انا فيها ولارجأت التفكير فى الخطر الى وقت وقوع الخطر. قال فانى لا اعلم اقريب هذا الخطر ام بعيد ، وان ما انا فيه الآن لهو الخطر كل الخطر ، او تظننى قد عرفت حقا اين انا وماذا يراد بى ومتى انا راجع الى ما كنت فيه . وتفضلت شهر زاد فشيعتنى الى باب غرفتها وهى تقول فى صوتها المشرق الذى يغرى بالبقاء لا بالانصراف « الى اللقاء » والى اللقاء القريب . اليس كذلك ؟

والقيت من دوننا الاستار وقد اسرع الى صاحبى فالتفت اليه ضاحكا وانا اقول ما ينبغى ان يرانى الناس ولا ان يرانى اهلى فى هذا الزى الغريب . قال صاحبى دهشا : اى زى ! ؟ وهممت ان اتكلم ولكن دهشى لم يكن اقل من دهش صاحبى حين نظرت فاذا انا فى زيى القديم الذى دخلت به القصر من تلك الفجوة لا اعرف كيف عاد الى ولا اذكر كيف نزعت عنى زينة الاستقبال . واريد ان اسأل صاحبى دهشا عن سر هذه الفتنة التى لا اعرف اولها ولا اعرف آخرها فأنا اذكر كيف خلع على ذلك الرداء الجميل الذى لقيت به شهر زاد ولا اعرف كيف خلع عنى ، واعرف كيف خرجت من زيى القديم منذ حين ولا اعرف كيف دخلت فيه الآن ، ولكن الفتاة الجميلة الرشيقة تدنو منى فى دعابة وظرف وهى تقول :

ــ لابأس عليك ياسيدى فان الزى الذى تلقى به شهر زاد لاينبغى ان تلقى به احــدا غيرها ، ولا تنس انك فى القصر المسحور

وابلغ الفندق بعد لحظات فاذا انا استقبل فى كثير من التجهم وغير قليل من السخط والاعراض . فلم تتعود اسرتى ان تفتقدنى فلا تجدنى ، ولا ان ترانى اغيب عنها دون ان انبئها بعزمى على الغيبة وبالغرض الذى انا قاصد اليه والمكان الذى تستطيع ان تلتمسنى فيه . وانا اريد ان اتحدث اليها بجلية الامر وانبئها بحقيقته ، وهذا لسانى يتحرك فى فمى يريد ان يأخذ فى بدء الحديث ولكنى ارده الى الصمت والسكون مشفقا من العاقبة التى لاشك فيها وهى ضحك الصبيين واغراقهما فى الضحك واشفاق زوجى والحاحها فى الاشفاق مما اقول . هم جادون فى غضـــبهم ولو قصــصت عليهم الامر من اوله لانكروه ، ولرأوا انى اهزل حين يجدون واتكلف حين يتبعون طبيعتهم ، ولظن الصبيان انى اعللهم ببعض هذا القصص الذى كنت اعللهما به اثناء الطفولة حين كانا يصــــدقان كل ما كان يقال . ومن لى الآن بأن يصدق هــــذان الصبيان ــ وهما ينكران ما يريان ــ وان تصدق امهما قصـــة هـــذا القصر المسحور الذى يقوم عند قمة من قمم الالب ، وقصة اختلافى اليه واشتراكى فيما يقع فيه من الاحداث . كلا ما ينبغى ان احدثهم بشىء من ذلك فلن يزيدهم هـــذا الحديث الا غضـــبا واشفاقا ، ولعله يدفع هذين الصبيين الى ان يظنـــا بأبيهمـــا الظنون ويريا انه من العجز والقصور بحيث لايســـتطيع ان

يعلل غيبته بعللها الصحيحة الواضحة ، فهو يتكلف لها مايتكلفه الاغرار من الحيل والمعاذير

فانا اذن اجتهد فى المداورة واحيد عن القصة كلما دفعت اليها ، ولكن الامر يتعقد فجأة فهم يسألوننى عن صاحبى توفيق ما خطبه ، او اين ذهب او كيف مضى على وجهه هكذا دون ان يودع قوما كان معهم او ينبئهم بمذهبه او يستأذنهم فى الرحيل . فاذا زعمت لهم انى لا اعرف من امره شيئا انكروا هذا كل الانكار ولامونى عليه كل اللوم ، وزعموا انى مقصر فى ذات الصديق ، تلم به الأحداث فلا أحفل به وينزل به المكروه فلا اسأل عنه ، ومن يدرى لعله استجاب لهذه النزوات التى تعرض له فخيل اليه أنه يستطيع أن يتسلق الجبل فى ساعة او ساعات كما كان يقول ، ولعله هم بذلك فمضى لطيته ثم اختلط عليه الامر وتقطعت به الاسباب فهو لايدرى كيف يعود . ولعله تعرض لاكثر من هذا من الشر فهوى الى قاع سحيق او غمره هذا الثلج الذى تثيره الريح فى اعلى الجبل او زلت به قدمه فهو صريع يستغيث ولا يجد له مغيثا

لابد اذن من انباء الفندق بأمره ثم من انباء الشرطة ثم من ارسال الرسل يلتمسونه فى كل وجه فهو لم يرتحل قاصدا الى الرحلة ، وهذه غرفته كما تركها فيها اثاثه كما تركه ، وهم يهمون ان ينبئوا الفندق والشرطة كما ارادوا وانا احاول ان اردهم عن ذلك واكاد انبئهم بأمر القصر المسحور ثم تصدنى عن ذلك بقية من حياء فأزعم لهم ان صاحبنا

غريب الاطوار وانه خليق ان يكون قد عاد الى باريس كما اقبل منها لم يفكر ولم يقدر ولم يتخذ لذلك اهبة ولم ينبىء به احدا

والخير فى ان ننتظر لعله ان يعود الينا او لعل انبـاءه ان تبلغنا بعد حين ، وانا الح فى وصف اطواره الغريبة واحواله المختلطة وتصرفه فى الغربة على غير نظام حتى اكاد اقنعهم بانه رجل شاذ كل الشذوذ ، لاينبغى ان ينتظر منه ما ينتظر من غيره من الناس ، فاذا فرغت منهم بعـد جهـد ولأى ، اقبلت على العمل الذى اهملته فأطلت اهماله ، واذا انا امضى فيه واذا هو ينسينى توفيقا وانباءه ويكاد ينسينى شهر زاد، ولكنى اتلقى هذا الكتاب على النحو الذى تعودت ان اتلقى عليه الكتب فى هذا الصيف



مشکوی شهرزاد

« من الحق ياسيدى انك لم تكن قاليا ولا ساليا حين ودعتنى ، فقد طالت غيبتك عنى وما ارى الا ان النسيان الآثم قد ضرب بينك وبينى استارا . ولولا بقية من الثقة بك لعتبت عليك ، ولولا فضل من حسن الراى فيك لصدقت وشاية سجيننا البائس حين زعم لى ان شاعرك ينسيك حتى شهر زاد . وقد كنت اظن انى لم انعم بالخلود وحده وانما نعمت به وبالشباب ايضا ، ولكن شيئا من الشك قد اخذ يعترضنى ويشغل بالى منذ اخذت احس غموضا فى بعض الاشياء واختلاطا لبعض الامر وقصورا عن تفسير ما يقع حولى من الخطوب فأنا لا افهم فيم طالت غيبتك وقد كنت اظن بك الحرص على لقائى ولا افهم فيم انقطعت انباؤك وقد كنت انتظر منك الحرص على ان تتصل بينك وبينى الاسباب ، وهناك امر آخر لا استطيع ان افهمه ويسوءنى حقا ان اشعر بعجزى عن فهمه وتأويله وهو امر هذا السجين المسكين ، فقد تركته عندى حائرا متولها لايدرى ماذا يريد ولا ماذا يراد به ، وقد رجعت من تشييعك شديدة الرفق به والعطف عليه اريد ان اواسيه او اسليه او اتوجع له كما يقول الشاعر القديم ولكنى لم اكد آخذ معه فى الحديث حتى اقبل الاسود ينبئنى بأن ثلاثة نفر غلاظ شداد قد اقبلوا يطلبونه وهم يريدونه على ان يتبعهم ، فاذا سمع ذلك ضاق به اشد

الضيق وامتنع عليه اشد الامتناع وجثا بين يدى خائفا وجلا وعائذا لائذا يسألنى ان اجيره ويتوسل الى فى ان احميه ، وهو يزعم لى انه قد عرف القصر المسحور او عرف بعضه وبلا آلامه ومحنه أو بلا بعضها ، وهو يؤثر ما يعرف على ما لا يعرف ويفضل ما بلا على ما لم يبل . وهو بعد هذا كله سعيد حين يشعر بأنه فى كنفى وفى ظلى آمن ان ينتهى به المكروه الى اكثر مما يطيق او ابعد مما يحتمل

ولست اخفى عليك ان قلبى قد رق له وان كان قلبى قد عاهدنى على الا يرق لاحد . فأخذت اهدىء من روعه واهون الامر عليه ثم طمعت واطمعته فى ان اخرجه من هذه المحنة واحميه من غوائل الزمان وقلت للاسود اذهب فقل لهؤلاء النفر ان شهر زاد تجير هذا الرجل وتحميه حتى من الزمان . وما سمع ذلك حتى انكب على قدمى يقبلهما فى حرارة وسعادة وفى امل ورضى ، وانا قد دبرت امرى تدبيرا واحكمته الاحكام كله ، وازمعت ان ادخل هذا الاسير فى ذلك البهو الحرام من القصر . ذلك البهو الذى لايدخله ولايخلص اليه احد غيرى ولا يستطيع الزمان ان يتجاوز مايلقى على بابه من الاستار ، وانى لادير الامر فىنفسى وآمر اسيرىبالنهوض فينهض مشرقا مغتبطا وانا مطمئنة آمنة ان يدخل هؤلاء النفر على قبل ان امضى ما شرعت فيه ، فما استطاع احد قط ان يدخل على شهر زاد دون ان تأذن له فى الدخول ، ولكن واأسفاه واحسرتاه والوعتاه ، هذه النافذة تفتح ولست ادرى كيف فتحت ولا من فتحها ، وهذا الفتى ينتزع من بين

يدى ويعلق فى الهواء تعليقا ويدفع فيه دفعا بطيئا وهو موله مدله قد فقد صوابه وغاب عنه رشده وهو يرسل الى نظرات فيها التوسل والتضرع والاستعطاف . وانا واجمة اول الامر ثم غاضبة لهذا الحرم الذى اعتدى عليه ، ثم ثائرة لهذا الجوار الذي استبيح وانا اسعى الى الاسير اريد ان استنقذه من هذه الايدى الخفية التى تعلقه وتسعى به فى الهواء ولكنى لا اكاد ابلغه حتى يدفع دفعة عنيفة واذا هو قد خرج من النافذة ومضى فى الجو كأنه السهم . هنالك رجعت كئيبا كاسفة البال تكاد تنحل قواى ، لولا ان قواى لا تعرف الانحلال ، فآويت الى مجلسي او الى مضجعى الذى تعودت ان ترانى مستلقية عليه . وجعلت افكر فى هذا الامر الذى اعرف اوله ولا اقدر آخره . وانت تعلم ان قد كانت بيننا وبين الزمان فى العهود القديمة جدا حرب ضروس كاد يمحقنا فيها محقا لولا اننا انتصرنا عليه بالحيلة واضطررناه ان يمضى بينه وبيننا صلحا قوامه ان له منا المسالمة ولنا منه الخلود ، فالزمان كما تعرف يأكل ابناءه جميعا ، وقد كان يريد ان يأكلنا فيمن اكل ولكننا افلتنا من شباكه واكرهناه على ان يضمن لنا البقاء ونضمن له السلم . افتراه قد الغى ما بينه وما بيننا من صلح ونقض ما اعطى على نفسه من عهد ، افترانا مضطرين الى ان نعيد الحرب بيننا وبينه جذعة وان ندك الارض والسماء دكا فاما انتصر علينا فأكلنا فيمن يأكل ، واما انتصرنا عليه فأثقلناه بالقيود والاغلال . افتراه اتخذ هذه القضية التي لجأنا اليه فيها عن رأيك ومشورتك الى

افساد الامر بينه وبيننا ورد الحياة كما كانت قبل ان يعرف القانون والنظام . ام ماذا ؟ ما هذا السجن الاحتياطى الذى يفرضه على رجل مسكين من الناس ليس له حول ولا طول بازاء سلطان الزمان الذى لاحد له ؟ مم يريد ان يحتاط ولمن يريد ان يحتاط ؟ افترانى فى حاجة الى ان اثير اخوتى جميعا من قصورهم حيث ينعمون كما كنت انعم بالراحة الخالدة والهدوء المتصل لنستأنف بين الزمان وبيننا صراعا كنا نظن انه مضى الى حيث لايعود ؟ لا تغضب ياسيدى ولا يثقل عليك قولى ، لقد احسست شيئا من الندم على هذه الفرصة التى اتاحت لى الاتصال بك وبصاحبك ، فما عرفت اننا نجنى من لقاء الناس او الاتصال بهم خيرا . وانى لاخشى ان يكون لقاؤنا هذا الصيف نذيرا بشر لانقدر عواقبه ولا يقدرالزمان نفسه عواقبه . اسرع الى واشر على فقد اختلط الامر امامى اشد الاختلاط وويل للخالدين حين يدبرون امرهم من الهالكين. ولكن لابد مما ليس منه بد ، لقد بدئت القصة فيجب ان تنتهى . ماذا كتبت اليك ؟ اخشى ان اكون قد آذيتك وتحدثت اليك بما لاتجب ، ومع ذلك فما اردت بك شرا ولا قصدت الى ما تكره ، ولكنك تعلم من امرنا غير قليل فقد ألممت بسيرتنا فى الزمان الاول ، وعرفت ماذا بلونا من الناس وماذا بلا الناس منا . وما ايسر العلم بذلك لك ولغيرك لو تقراون ما تسمونه الاساطير

« معذرة اليك ياسيدى ، اسرع الى واشر على ، فما ارى

الا اننا قد استقبلنا عهدا جديدا سنستأنف فيه حياتنا الاولى فنتصل بالناس ويتصل الناس بنا فلتعن الاقدار كلا على كل كما قال الخطيب العربى القديم . والى ان اتلقاك اواتلقى ردك على ، ارجو ان تقبل ياسيدى تحية المحزونة المشــوقة اليك »

شهر زاد



مواساة شهرزاد

« سيدتى :

« بعض هذا الفزع والجزع ، وبعض هذا اليأس والقنوط ، فقد روعنى كتابك حقا واذهلنى عما كنت اضطرب فيه من شؤون الحياة . ولئن كنت عاتبة على ياسيدتى لانى قد غبت عنك فأطلت الغيبة ، فانى عاتب عليك لانك قد روعتنى فأسرفت فى ترويعى دون ان يكون فى الامر مايدعو الى بعض هذا الاضطراب ، فضلا عن كل هذا الاضطراب تنكرين غيبتى الطويلة ، فقد آمنت لى ياسيدتى بأن لأهلى على حقا وبأن لعملى على حقا ، افتمنحين باليمين وتستردين بالشمال ؟ ولئن طالت غيبتى عنك ياسيدتى فما طالت عن رغبة ولا عن رضى ، ولكنا نتشبه بك وبأترابك الخالدين ، فنرى ان لقوانين الحق والواجب حرمة يجب ان ترعى ونكره لانفسنا ان نتجاوز حدود هذه القوانين او ان نخالف عن أمرها . ولقد زعمت لصديقنا الاسير البائس ان ملوك الناس واصحاب السلطان اقدر منك على تغيير ما يشرعون من قوانين ، بل على انتهاك ما لهذه القوانين من حرمات ، وانك على خلودك وسلطانك الذى لاحد له عاجزة عن تغيير ما شرعت لنفسك وللقصر من قانون ، فنحن ياسيدتى نحب هذه الرعاية للقانون المشروع ، ونكره الخروج عليه ونضيق اشد الضيق بجور الجائرين منا وتجاوزهم للحدود ، ونرى ان نتشبه بكم ما استطعنا وان

نرى للحياة حقها فنفى حين يجب الوفاء ونخلص حين يجب الاخلاص ونعمل حين يجب العمل ، لا نؤثر انفسنا بالراحة ولا باللذة ولا بلقاء الاحباء الا حين تبيح لنا قوانين الحياة والواجب هذه الراحة وهذه اللذة وهذه النعمة بلقاء الاحباء .
افتنكرين على ياسيدتى ما تعرفين لنفسك وما تحبين ان نحمد لك من السيرة والخصال. انى لاعلم انكم معشرالخالدين تتهموننا نحن معشرالهالكين بكثير من الغرور والكبرياء ، ترون اننا نتجاوز حدودنا ونخرج عن اطوارنا حين نتأثركم ونسير سيرتكم ونحاول ان نرعى القوانين كما ترعونها وكثرة الناس من حولنا يرون فينا رأيكم هذا ، يتهموننا نحن العقليين بالفلسفة والشذوذ ، والفلسفة والشذوذ عندهم يؤديان ما تؤدونه انتم حين تذكرون الغرور والكبرياء . فنحن حائرون ياسيدتى ، نتأثركم فتغضبون علينا وتسخطون منا لاننا نطمع فى غير مطمع ، ونتأثركم فينقم الناس منا ويضيقون بنا لانا نخرج عما يحبون ويألفون . ولو اننا اعرضنا عن تقليدكم ومضينا مع الدهماء فتبعنا الهوى واطعنا الغريزة وخرجنا كما يخرجون على قوانين الحياة والواجب لغضبتم علينا ولانكرتمونا ولالحقتمونا بالعامة وصببتم علينا مثل ما تصبون عليهم من المقت والازدراء . هل لك ياسيدتى فى ان تنبئينا نحن المفكرين البائسين كيف نصنع لارضائكم فانا قد يئسنا من ارضاء الناس ؟ افترين اننا سنيأس من ارضائكم ايضا وسننتهى الى ما انتهى اليه جماعة من الافذاذ النادرين ، فنرى ان العقل خليق ان يستغنى بنفسه وان يتمرد عليكم وعلى الناس جميعا ،

والا يحفل الا بأن يرضى هو وما اقل ما يرضى . لقد طالت غيبتي عنك ياسيـدتي وما احببت ذلك ، ولو طاوعت نفسي لرغبت اليك في ان تخطفيني كما خطفت اسيرك البائس وفي ان تمسكيني عندك وترصـدي لي العيون والاحراس حتى لا اتجاوز بابا من ابواب قصرك المسحور . ولكن ماذا اصنع ولأهلي على حقوق ، ولعملي على حقوق ، وللذين اعرفهم والذين لا اعرفهم من الناس على حقوق . انما حظي من لذة القرب منك والاتصال بك حظ مقدور لم يتح لي الا بين حين وحين ، حين يأذن لي القانون الذي اخذت نفسي به ان انعم بهذه اللذة واستمتع بهذه الحيـاة الحلوة . فاشفقي على ياسيدتي من هذا الحرمان وارحميني من هـذا القصور ولا تتهميني بالاهمال والتقصير ، ولا تسمعي في وشاية مهما يكن مصدرها وان كان هو اسيرك العزيز عليك وعلى معا

« على اني اعود ياسيدتي فأستأذنك في الرثاء لك والاشفاق عليك ، واعترف بأن الامور قد دارت دورتها وتكشفت عما لم اكن انتظره ولا ارجوه ، فكيف اصدق ان شهر زاد الخالدة التي لاحد لقوتها وسلطانها تحتاج الى ان يرثى لها ويشفق لها ضعيف هالك مثلي . يظهر ان نظام الكون قد تغير او انه آخذ في التغير . ماذا تشكين في قوتك وتنكرين سلطانك وذكاءك ، وانت التي تمنحين امثالنا القوة والسلطان والذكاء ، ولكن ماذا انكر وقد انتهينا الى عهـد لاينكر فيه شيء ولا يعرف فيه شيء . قد اضطرب كله ، فالمطر ينهمر في اوقات الصحو ، والصحو يشرق في اوقات المطر ، وقد اصبح الصيف شتـاء

والشتاء صيفا ، وقد انقلبت الاوضـــــاع واضطربت النظم واختلط كل تقدير وتدبير ، ولو ان لعقولنا بقيــة من الثقة بنفسها لما شككت فى ان الحياة قد عادت كشأنها يوم خلق الله السموات والارض ، وفى ان ما بلغنا اليه من رقى قد استحال الى تراجع وانحطاط . ولكن لنتدبر امرنا ياسيدتى ولنستقبل ما يعرض لنا بشىء من الحزم والعــزم ومن الاناة والتفكير .

ما هذا الخوف الذى يملأ نفسك الخالدة ، وما اشفاقك ان يكون الزمان قد عاد سيرته الاولى واراد ان يعيد الحرب بينكم وبينه جذعة ليأكلكم كما يأكل ابناءه الآخرين ؟ أكل هذا لانه كره ان يموت اسيرك قبل ان يأتى اجله فاستنقذه منك وضمن له حياته ليتم مايريد الله ان يتمه فى هــذا الكون ، فأنت ياسيدتى كنت تريدين ان تقتلى أسيرك لا اقل ولا اكثر ، فهل فكرت فى معنى استنقاذه من الزمان وحفظه حتى لايصل اليه ، انما معنى هذا الموت بل معنى هذا ابلغ من الموت معناه الفناء الذى لاوجود معه ولا وجود بعــده ، فأى شىء نحن اذا لم يشملنا الزمان بحمايته ورعايته ، واى شىء انتم اذا لم يشملكم الزمان بحمايته ورعايته ، لقد ضمن الزمان لكم الخلود فى ذلك الصلح الذى امضيتموه ، ولكنه لم يضمن لكم تجاوز حدوده ولا الخروج عن سلطانه . وهل تعرفين للزمان حــدا وهل تعرفين لسلطانه غاية تنتهى اليها ؟

« معذرة ياسيدتى ، لقد كنت اظن انك انت التى الهمت حكيم المعرة هذا البيت العجيب :

ولو طــار جبــريل بقيــة عمره
من الدهر ما اسطاع الخروج من الدهر

« اترين ابرع او اروع من هذا فى تصوير سلطان الدهر الذى لاينتهى وملكه الذى لاحد له . لم يضمن الزمان ياسيدتى فراقه ولا الخروج عن سلطانه ، وانما ضمن لكم صحبته ابدا وجعل الفرق بينكم وبيننا اننا نحن نأكل وانتم لاتأكلون ، فقد كنت تريدين ياسيدتى ان تكرهى الزمان على ان يأكل توفيقا قبل ان يتم نضجه . افتغضبين لانه ابى ان يأكله نيئا ؟ وما رايك فيمن يريد ان يكرهك على ان تأكلى من الالوان ما لا تحبين ولا تسيغين ؟ انما نحن ياسيدتى ملك الزمن ينشئنا وينمينا وينضجنا حتى اذا بلغنا حاجته ورضاه اكلنا كما يشاء هو لا كما نشاء ولا كما تشائين

« وغريب ياسيدتى الا تفهمى مم يحتاط الزمن ولمن يحتاط بحبس هذا السجين ، فانه يحتاط للسجين نفسه اولا ، فمن يدرى لو خلى بينه وبين الحرية ، لعله ان يكتب كتاباآخر يسوء به هذه الاشباح الساخطة الصاخبة، فيزيدها غيظا على غيظ وهياجا الى هياج . ويحتاط لهذه الاشباح التى لجأت اليه وقبلت حكمه ، فمن حقها عليه ان يحميها من كتاب جديد ويحتاط لك انت من ان يعود الاسير الى مايرى خصومه انه اثم ، فيعود هؤلاء الخصوم الى اثارة الضجيج والعجيج من حولك والى الالحاح عليك فى تسليمه ، ومن يدرى لعلهم يخرجون عن اطوارهم فيحدثوا فى قصرك حدثا او يبطشوا بالاسير بطشا يسوءك فيه ويحزنك عليه . لا تنكرى اذن على الزمان احتياطه فهو حكيم فيما يأتى ان كنت قد رايته يأتى شيئا ، وهو حكيم فيما يقول ان كنت قد سمعته

يقول شيئا . انما الخير ياسـيدتى ان تطمئنى لقول الزمان وفعله ، وان تصلحى ما بينك وبينه من الامر ، وان تستأذنيه فى لقاء اسيرك من قريب او البر به من بعيد ، فذلك انفع واجدى من ثورة لا تغنى عنك ولا عنه شيئا . انما الخير ياسيدتى فى ان تتعجلى نظر الزمان فى هـذه القضيـة حتى لايطول سجن الاسير ، وحتى تنتهى هذه القضيـة كما بدات فتستريحى ونستريح ويسـتريح الزمان . وما ارى انه سيجيبك الى السرعة فى انجاز هذه القضية ، فان حياة الناس من حولنا مضطربة كما ترين ، وأخشى ألا يفرغ الزمان لقضية صديقنا المسكين قبل أن يفرغ من هذه القضايا الخطيرة الكبرى التى تفسد ما بين الشعوب

« اما بعد فانى ماكرهت ياسيدتى ، وما ينبغى لى ان اكره شيئا تقولينه لى او تسوقينه الى . فكل شيء يأتى منك عذب لذيذ ، تطمئن اليه النفس وينعم به القلب ، فارضى فالنعيم فى رضاك ، واغضبى فان الالم فى سبيلك لذة ، ولا تحسبى ان ندمك على الاتصال بى وبصاحبى يسوءنى ، فستعلمين ان لم تكونى علمت من قبل ان الخلود وحده لايكفى لسعادة الخالدين ، وانما قيمة الخلود ان يتصل من حين الى حين بالفناء واصحاب الفناء ليقدر نفسه ويكبرها ويرتفع عن السأم والملـل ، وعن اليأس والقنوط ، والى ان تنعمى على سيدتى بساعة حلوة فى حضرتك ارجو ان تتفضلى فتمنحينى يدك الكريمة الرشيقة لأضع عليها قبلة كلها وفاء وحب واخلاص »

في الحبس الاحتياطي

امر « الزمن » بتوفيق الحكيم فحبس فى برج ساعة كبيرة فى راس كنيسة « كومبلو » على ارتفاع الف متر عن سطح البحر . ذلك ان « الزمن » دائما يقول : « اذا كانت المساجد والكنائس هى بيوت الله ، فان ابراج الساعات هى بيوتى ». ولا يعرف غير رب البرج كم من الايام لبث المتهم فى ذلك الحبس ، لايسمع غير دقات « النصف » و « الربع » وصرير « العقارب » التى تأكل حياتنا لحظة لحظة ، و « التروس » التى تطحن وجودنا ذرة ذرة . وبينا المتهم قد اطرق يأسا وذلا ، لايفكر فيما كان من امره ولا فيما سيكون ، كأنما عقله قد كل وذهنه قد أقفر ، وكأنما يأسه قد اغراه بأن يقذف نفسه فى « طاحونة الزمن » لتحيله العقارب والتروس الى دقيق يتناثر فى الهواء ويعيش سابحا فى الفضاء . اذا « الريح » تلقى اليه برسالة مختومة من كوة فى قمة البرج . ففض الرسالة بيد كسلى ونفس ميتة وقرأ :

« عزيزى

« يشق على ان تخطف منى سريعا ، وان يذهب عني الصفاء الذى أشرق به وجهك فى اليوم الاخير . ولكن «السارق مسروق » ولقد سرقتك ، فسرقت منى ، ان « القاضى » لم يأذن لى فى دخول الحبس كي اراك . غير انه اذن لى فىالكتابة

اليك . ولطف بى فأمر ان تحمل اليك رسالتى على اجنحة « الريح » . فاذا طالعتها فهل لى أن اطمع فى كلمة منك تقيم بها أودى حتى تعود الى ؟

شهر زاد

وقعت الرسالة من يد السجين ، وقد تغير وجهه . لكنه التقطها فقرأها من جديد وقرأها وقرأها حتى كاد يقطعها قراءة . ثم صاح : « هذه المرة قد اصابت منى مقتلا ! »

« أين القلم والقرطاس ؟ » فتساقطت عليه من الكوة اقلام وقراطيس ... فجلس من فوره وكتب :

« سيدتى » . ولكن هذا النداء لم يرقه . فمزق الورقة وتناول ورقة أخرى وكتب .

« عزيزتى » . غير أن هذا اللفظ أيضا فيه فتور . وهو يريد لفظا كالسياط الساخنة . فمزق القرطاس وتناول غيره وكتب :

« معبودتى

« ان حبك خالد كالوجود . ولن يستطيع الزمن أن يفرق بيننا أو يحطم حبنا . ان الحب يحلق فوق الزمن ، كما يحلق الفراش فوق الازهار . ان الحب قد قتل الزمن ... وما بلغ السجين هذه العبارة حتى سمع ضحكا عريضا وقهقهة خشنة كلها سخرية رن صداها فى المكان وارتجت لها عقارب الساعة . ثم خفت الضحك وتلاه صوت أجش عميق النبرات يقول هازئا :

ــ من هذا الابله الذى يزعم انى قتلت ؟

ولم يسمع السجين غير ذلك . فقد خيم السكون . وكأن

شيئا لم يكن فى هذا المكان . على ان هذا الصوت الهازىء لم يبرح له صدى يرن فى راس السجين ويلعب بأفكاره حتى قلبها راسا على عقب . فرفع القرطاس ومر عليه ببصره وابتسم ، ثم مزقه وتناول قرطاسا آخر وكتب :

سيدتى :

اما انى خطفت منك سريعا وسرقت وشيكا وانت الخاطفة السارقة ـ ولا فخر ـ فهذا ما يحدث دائما . فان السارق كما قلت مسروق.وما جاءت به الرياح ذهبت به «الزوابع» ! ويظهر ان هذا قانون الحياة كما هو قانون القصر ! وحياتنا السريعة ان هى الا خطف فى خطف . ولقد خطفتنى من اصحابى فخطفنى منك الزمن ، ولا ادهش اذا خطفنى من الزمن من هو اقوى منه . اما ان كلمة منى تقيم اودك فهو امر يدهشنى ، ولا اغبطك عليه ، فيا لضيعة انسان تقيم أوده كلمة منى ! . . واما رغبتك فى زيارتى بالحبس فهو رفق بى ولطف لا احسبنى انساه لك . وبعد فأنى اخشى ان تكون كلمتى اغلظ مما كنت تتوقعين . ويخيل الى ظنى السيء بالمرأة ان كل رسالة تخلو من الاشارة الى « الحب » هى عند المرأة رسالة غليظة . واؤكد لك ياسيدتى انى ما كنت اضن على مثلك بهذه الاشارة لو لم يكن « الحب » هذا الصبى الرقيق الضعيف لا يبدأ الكلام اول ما يبدأ الا بتحدى « الزمن » ذلك الجبار الطاغية المخيف ، ولا يفتح فمه الصغير الا بأغانى واناشيد ينظمها من الفاظ براقة متلألئة يرى الزمن أنها له وحده ، وانها ما وجدت الا ليرصع بها تاجه الهائل . هذه الالفاظ هى « الخلود والابد والبقاء »

يلعب بها « الحب » الجميل لعب الاطفال بكرات البلور ذات الالوان تحت اقدام « الزمن » الساخط الساخر . الى ان يضيق « الزمن » به ويعبثه ذرعا فينفخ نفخة صغيرة فاذا « الحب » قد طار بأناشيده وألفاظه ولعبه وأغانيه ! ومع ذلك ياسيدتي فأنت تعلمين ان امري الآن بين يدى « الزمن » وان « قضيتى » الساعة موضع نظره . فهل أستطيع اليوم ان اغضب هذا « القاضى » العظيم بالانصراف الى ذلك الطفل اللعوب !؟..

واخيرا يا سيدتى ارجو ان تتقبلى خالص شكرى على جميل عنايتك ، وان تأذنى لى فى ان اضع عند قدميك :

توفيق الحكيم

دارت « العقارب » دورتها ، واستقبلتها اجراس البرج بالضجيج ، ورجعت « الريح » مسرعة تحمل الى السجين الجواب :

« ايها الاسير العزيز

« فهمت كل شيء : ما أشد خوفك وخوف صديقك من « الزمن » !

لقد وجه طه حسين الى كذلك كتابا طويلا عريضا تترنح سطوره فرقا من مخاصمة « الزمن » ، ذلك الغول الجائع الذى يأكل الناس فى غير ميعاد غداء أو عشاء

ولقد تبينت من قول صديقنا طه انه لا يريد لك ولا لنفسه ان تؤكلا نيئين قبل ان يتم نضجكما وقبل ان تفرغا كل ما فى جعبتيكما من كتب ومقالات ، فراح يتهمنى فى صراحته الجريئة انى اريد الموت العاجل لمن اسعى الى استنقاذه من يد الزمن .

زعم غريب ! فأنا لا اعرف الموت ما هو . لانى كما تعلم اعيش دائما . وكنت اريد لكما حياة صافية مثل حياتى فى ذلك القصر الجميل الذى لا يموت الصيف فيه ابدا . ولكن ... لتكن مشيئة صديقك طه . وليمض فى اشفاقه على نفســـه وعليك وعلى الكون المسكين ، الذى لا محالة صائر الى الفناء بعد كما ، سائر الى حيث تنخر فيه عوامل الفساد انغادرتماه قبل ان تريقا عليه كل ما عندكما من محابر ، وتنثرا عليه كل ما فى راسيكما من نثر !! واها لكم ايها الادباء !

« لقد طال بى العهد فنسيت ان رؤوسكم الآدمية العظيمة يوم تقدم للدود لن يجد فيها غير « كلمات مرصوصة » لاتسمن ولا تغنى من جوع ! انى فى حقيقةالامر ارثى لكم معشر الآدميين: ما اشق جهدكم طول الحياة ارضاء « للزمن » ، وما اشد حرصكم على الا يلقى بكم فى اعماق بحاره الظلماء ، التى لا يعرف هو نفسه مقرها ولا غورها : بحار النسيان ! ما حرصكم هذا ايها الحمقى ! انكم يوم تذهبون لن يعنيكم من امر « الزمن » شيئا . وسوف تنقلبون اشياء لا تعرف الدنيا ولا تذكرها ولا تحفل بشعرها ونثرها ومجدها . انكم يوم تتجردون من هذا الثوب الآدمى ، تتجردون كذلك من تلك الاوهام والاحلام التى تدفعكم الى تقدير « الزمن » . فالزمن نفسه ما هو الا الملك المتوج على عرش تلكالاوهام والاحلام ، فاذا ذهبت منادمغتكم ذهب معها . فهو منسوج من مادتها . وهو اضعف واوهى مما تتصورون . فهو لا شىء غير فنائكم الآدمى تجسم شبحاهائلا احاط بكم من كل جانب . بل ان مخيلتكم الفانية هى التى

افرزت هذا السم الذى تسمونه « الزمن » ثم طلت بهحياتكم وسجنتها فيه . فشأنكم شأن « دودة القز » تفرز من لعابها تلك المادة الحريرية التى ما تزال تلتف حولها وتحيط بها حتى تحبسها وتخنقها وتميتها

فالوجود نفسه يسخر من تلك الكلمة ولا يعرف الا انها حماقة من حماقات البشر او ضرورة من ضرورات حياتهم الزائلة . بل ان الوجود لا يعرف ولا ينبغى له ان يعرف هذا الكائن الموهوم « الزمن » ولقد استعان صاحبك ببيت من شعر المعرى ، بديع الخيال حقا :

ولو طار جبريل بقية عمره
من الدهر ما استطاع الخروج من الدهر !

لست أذكر ان كنت أنا التى أوحت اليه به فى ساعة من ساعات لهوى وعبثى ، انما الذى يدهشنى الآن هو هذا السؤال : هل لجبريل عمر ؟ وهل هو يتحرك بجناحيه فى الزمان والمكان ؟ اذن فهو بشر . الإ اذا قصد بالدهر الله والوجود . فأن الحركة فى الزمان والمكان ليست من صفات الخالدين تلك كلمات . ابتدعها البشر لانفسهم ولوصف حياتهم ! انى أعجب دائما لاولئك الذين يريدون كشف أسرار الله بكلمات من قاموسهم اللغوى ! أليس من المضحك أن تصطنع أيديكم الصغيرة ذلك المسبار القصير لتسبر به غور الكون .. ؟ !

أما « الحب » الذى تهزأ به ، فهو حقا ضعيف رقيق كالزهرة التى لا تعيش أكثر من يوم . ولكنه جميل والجمال

لا علاقة له بالزمن فأن اللحظة منه تكفى لأضاءة حياة كاملة . ان لم تصدقنى فاصغ الى همسات فلاسفتك العظام وقد اشرفوا على الحفرة :

« الكل باطل وقبض الريح ... واحسرتاه ! ولا شيء فى حياتنا الآدمية يستحق منا الآن تحية وداع : غير لحظة حب ظفرنا بها »

« وبعد فأنى اخشى أن أكون قد قسوت عليك . واحب ان تعتقد انى على الرغم من رسالتك لم أزل لك صديقة وفية . وانى أنتظر نافدة الصبر ساعة الحكم ببراءتك . وانك لن تجد منى فى كل حين سوى عطف خالص لا ينتظر اجرا . فنحن الخالدين قد اعتدنا أن نعطى ولا نأخذ . على أنك اذا تفضلت فقبلت منى ، راضى النفس صادق الايمان ، ما ابعث اليك مع هذا الكتاب من حب هادىء ، لا يرجو شيئا ولا « يتحدى أحدا » ولا يعرف الأغانى والألفاظ والأناشيد ، فأنك تعيد ابتسامة الصفاء الى ثغر المخلصة لك

شهرزاد

لم يقرأ المتهم هذه الرسالة مرة ثانية ، ولم يضع وقتا ، وتناول من ساعته القلم وكتب :

« سيدتى العزيزة :

« أبادر فاعترف لك أن كلامك عن « الزمن » قد ادهشنى حقيقة . كلا ، لست أصدق انك تؤمنين بما تقولين !

« انما هى ثورة اهاجها فى نفسك كتابى ، الذى آثرت فيه الانضواء تحت لواء «الزمن» على السكون تحت جناح «الحب» ،

فرايت ان تنصرى «الطفل» بأن تحملى على « الجبار » على انى اراك انت أيضا تنتضين سلاح « الكلمات » حاسبة انك بها تستطيعين أن تقتلى وان تمحى من الوجود هـذا الكائن الذى نحيا جميعا فى أحشائه .اتأذنين لى فى ان أسألك : اين تعيشين ؟ الا تحسين بأنك تعيشين فى الزمن ؟ هذا الخلود الذى تنعمين فيه ، ما هو ، وما معناه ؟ اليس هو الحيـاة المتصلة فى « الزمن ! » ان الزمن ليس وهمـا ، انمـا هو اناء عظيم لا قاع له يسبح فيه الأحيـاء والأموات ، الخـالدون والهالكون. فاذا أخرجت منه ، فأين تكونين والى من تصيرين ؟ العدم ؟ ان كان لهذه الكلمة أيضا معنىأو وجود لكانت قليلة! فان من خرج من قصر « الزمن » نزع عنه رداء « الخلود » . اذ لا « خلود » الا بالقياس الى « الزمن » ! فالزمن كما ترين يفرض سلطانه حتى على الخالدين . فهو الذى يخلع عليهم أبراد « الخلود» الموشـاة داخل مملكته التى لا مبدأ لهـا ولا نهاية ، ولا يستطيع جبريل أن يخرج عن حدودها لو طار بقية عمره فى ارجائها . نعم ، لقد صـدق المعـرى وطه ، فـأن « الدهر » أو « الزمن » يسـع فى محيطه جـبريل والكـون والوجود فما دام هؤلاء جميعا قـد دخلوا « مجرة » العقـل الآدمى فقد خضعوا معه علىالرغم منهم ومنه لأمرة «الزمن». فنحن بغير « الزمن » لا نعى شيئا ولا تصلح عقولنا لشىء . فان ابرة العقل متصلة « بمغناطيس » الزمن . هكذا خلقنا نحن البشر . وأرجو منك الا تقولى ان هنالك وجودا مطلقا خارج « منطقة نفوذ » الزمن والعقل الآدمى ، فانى أجيبك من فورى ، ان ما يخرج عن منطقة عقلنا وزمننا لا وجود له

عندنا ، لأننا لا نستطيع أن نتصوره ، فانت موجودة عندى لأنك قد دخلت منطقة تصورى . وما دمت داخل تصورى فانى لا املك ان أدفع عنك سيطرة « الزمن » الذى يبسط حكمه على راسى وعلى كل من دخل راسى من خالدين وهالكين . ارايت يا سيدتى قوة « الزمن » وجبروته ؟ اما قولك ان « الزمن » وهم افرزته رؤوسنا الآدمية ، فهو كلام يصدق على كل ما تقع عليه حواسنا من موجودات مادية أو معنوية . فليس هناك فى الواقع حقيقة ولا وهم . انما كل شيء وليد رؤوسنا وافراز أدمغتنا . فما انت يا سيدتى العزيزة ، وما الجبال التى تحيط بى ، وما الكتب التى اقرؤها وما الأصدقاء الذين أحبهم وما أهلى ، وما عملى ، وما مالى الا افرازات تخرج من راسى . فانت و « الزمن » فى هذا سيان . لا استطيع أن أسمى احدكما وهما والآخر حقيقة

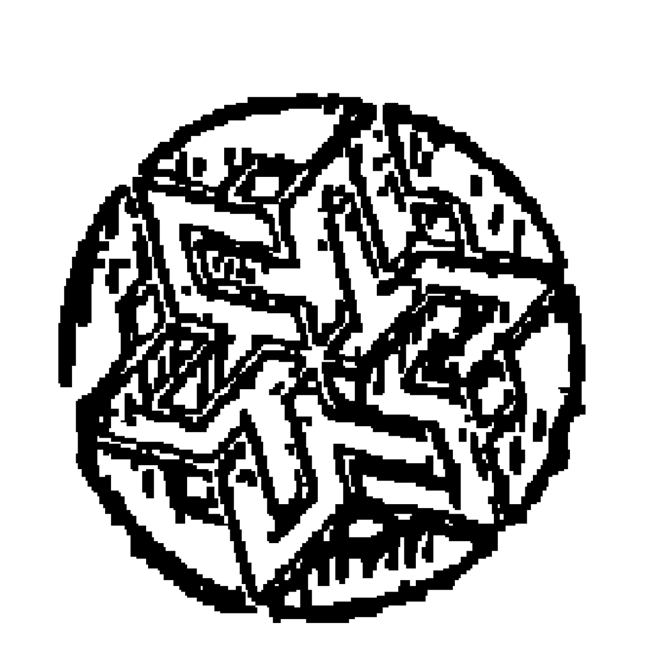
« أما دفاعك عن « الحب » ، فهو جميل « كالحب » . ولست أنكر مطلقا انه أعجبنى وأثر فى نفسى . ما أصدقك اذ تقولين ان لا شيء يستحق منا تحية وداع على الأرض مثل لحظة حب ظفرنا بها ! نعم .. ولكن .. تلك اللحظة ، اين هى ؟ انستطيع ان نظفر بها فى كل حين ؟

وبعد ، فأرجو أن تغفرى لى هذه المرة ايضا جفاء هذا الكتاب ، فانى انما اردت ان اعيد اليك الثقة فى مولانا « الزمن » فما دام هو الذى ينظم حياتنا فهو ولا ريب الذى يقيم العدل ويرد الحق الى ذويه

« واقبلى يا سيدتى المحبوبة خالص شكرى على عطفك الذى تجودين به دائما على . ولو كنت ارى قلبى جديرا بك لبعثته اليك رسولا أمينا يقرئك السلام من

أسيرك المخلص

توفيق



المحاكمة

جاء يوم المحاكمة . وعقدت الجلسة فى راس « الجبل الابيض » بالقرب من « شامونكس » . واعتلى « القاضى » القمة فى هيبة ووقار . وهو كائن طويل مديد ، لا ظهر له ، ولا يبدو عليه عمر ، له وجهان : أحدهما أسود والثانى أبيض . وقد اتخذ له من « قوس قزح » وساما يزين صدره الذى كساه الجليد . وعندئذ قصف « الرعد » وهو حاجب الجلسة :

ـ محكمة !

فنهض الحاضرون رهبة ورعبا قبل ان ينهضوا اجلالا ، وسقط ضعاف القلوب منهم مغشيا عليهم ، فلم يلتفت اليهم احد ، حتى افاقوا من تلقاء انفسهم صفر الوجوه فوجدوا الناس قد جلسوا فجلسوا وكأن على رؤوسهم طير الرخ !

وعندئذ هبط من القمة صوت هادىء عميق :

ـ فتحت الجلسة !

واشار « القاضى » الى « الزوابع » فصفرت ومضت ثم عادت حاملة « المتهم » والقت به على الجليد ثم استأخرت عنه . وعندئذ هبط الصوت العميق :

ـ ايها المتم ، قف !

ولكن المتهم لم يسمع شيئا . فلقد كانت أسنانه تصطك ، وفرائصه ترتعد ، لا من الخوف وحده ، ولكن من البرد .

فهو الساعة على ارتفاع خمسة آلاف متر عن سطح البحر او يزيد

ولما راى « القاضى » ان المتهم لم يبد حراكا . اشار الى حاجب الجلسة . فتقدم « الرعد » ودنا من أذن « المتهم » وقصف :

ـ قف ، أيها المتهم ! ..

وكأن لطمة قد اصابت ام راس « المتهم » فانبطح على الأرض لا يعى . ثم ثاب الى رشده بعد قليل وهو لا يذكر من أمره شيئا . وسمع همسا خلفه فالتفت . فاذا شهر زاد مع حاشيتها والى جانبها طه حسين جالسين فى الصف الأول من صفوف المشاهدين وهم يتتبعون ما يقع فى جد وقلق واهتمام . وما علموا أن توفيقا أحس بهم حتى همسوا اليه مشجعين :

ـ قف ولا تخف ! ذاك حاجب المحكمة !

ـ حاجب .. المحكمة !..

همس المتهم بذلك كالمخاطب لنفسه من بين أسنان ما زالت تصطك على الرغم منه : « اذا كان هذا حاجبها فهل يرجى منها خير ؟ ! » ثم تحامل على نفسه ووقف مترنحا كالسكران وصاح :

ـ أ .. أ .. اين هو القاضى ؟ لا سؤال و لاجواب قبل ان تحضروا الى معطفى الصوفى . ساموت من البرد قبل صدور الحكم !..

فأشار « القاضى » الى « الحاجب » فتقدم « الرعد » الى المتهم وقصف :



« وجاء يوم المحاكمة ، وعقدت الجلسة فى رأس « الجبل الابيض »

ـ اين هو معطفك ؟
فانتفض المتهم انتفاضة كادت تطرحه الى الأرض . لكنه ثبت والتفت صائحا :
ـ النجدة يا اهل المروءة ! أما من حاجب ألطف من هذا ! .. أيها القاضى ، اذا تركت على حاجبك هذا فانى لا اضمن حياتى الى آخر الجلسة . فألتمس من عدالتك لا تجعل بينى وبينك حاجبا .. ! فان مثلى وان لم تكفه الاشارة فهو على كل حال لا يحتاج الى مثل هذا الترجمان الذى يميتنى ويحيينى فى كل لحظة !
ـ ولكنى انا فى حاجة الى هذا الترجمان . فان سمعى ثقيل ، لا تصل اليه أصواتكم ولا صخبكم وضجيجكم !
ـ وكيف تسمعنى الآن ايها القاضى !
ـ امرت « الريح » أن تجلس طول الجلسة تنقل الى ما يدور فيها من كلام !
ـ لا بأس بالريح ، فهى على كل حال أرق حاشية وأهون خطبا !
ـ فليكن ما تريد !
واشار القاضى الى « الرعد » أن تنح الآن ، فامتثل ووقف فى آخر المكان ينظر ولا يتكلم . وعاد القاضى الى المتهم قائلا :
ـ اين معطفك فنحضره اليك
فسكت المتهم واخذ يتذكر :
ـ أين معطفى ؟ ذلك هو المشكل ! اين تركته واين تسيته ، لقد صحبنى فى كل مكان . لازمنى فى مصر وفى السفر وفى

الجبل . وحتى فى الجحيم بين اللهيب ما تركته وما نسيته ! واليوم وانا فى السماء عند السحاب وبين الجليد اتركه وانساه واصعد بدونه !..

فتهامست شهرزاد وطه مبتسمين :

ــ حقا لا يحدث هذا الا من توفيق الحكيم !

وعيل صبر القاضى فقال فى شىء من الحدة :

ــ انا لم نجتمع فى هذا المكان لننظر فى قضية معطفك ! ولا إخالك تعتقد انى عاطل لا عمل لى فى الوجود غير النظر فى التافه من امورك !

فاطرق المتهم وارتج عليه . فنهضت شهرزاد قائلة :

ــ فليأذن سيدى القاضى فى أن ادل « الزوابع » على مكان معطفه . انه فى حمام قصرى !

ــ فى حمام قصرك ؟ وماذا يصنع فى حمام قصرك ! آه .. نعم .. تذكرت !

همس بذلك المتهم .. وطارت « الزوابع » اذ سمعت قول شهرزاد . وعادت فى لمح البصر بمعطف توفيق والقته على منكبيه .. وما شعر توفيق بثقل معطفه حتى اطمأن وقال :

ــ واين عصاى ؟

فكظم القاضى ما به وقال :

ــ انتهينا من مسالة المعطف وجاء الآن دور العصا .. ماذا يفعل بالعصا فى حضرتى .. وهى لا تقى بردا ولا حرا ولا تدفع شرا ولا ضرا !

ــ انى لا اشعر بانى انا حقيقة توفيق الحكيم الا بمعطفى وعصاى !

ـ هاتوا له ما يريد . ان هذا الانسان قد أضاع « منى » اكثر مما ينبغي فى غير طائل !

ولم يمض قليل حتى كان المتهم ماثلا بمعطفه وعصاه بين يدي القضاء مستعدا لكلمته وأمره .. وتنفس القاضي الصعداء :

ـ أخيرا ! الك حوائج اخرى أم ننظر فى الموضوع ؟

ـ ننظر فى الموضوع

ـ حمدا وشكرا ! تقدم أيها المتهم ! ما اسمك ؟

ـ اسمى توفيق الحكيم ..

ـ عمرك ؟

ـ أيها الزمن ألا تعرف عمرى ؟

ـ معذرة ! صدقت ! انى أعرف عمرك . ومنذا غيرى ينبغى له على الأقل أن يعرف الأعمار ؟! صناعتك

ـ صناعتى ؟ .. أيهما ؟

ـ أديب وكاتب روائى يختلق الحوادث ويبتدع الأشخاص .. أليس كذلك ؟

ـ عفوا ، سيدي القاضي، ليست هذه صناعتي الأصلية..

ـ لست أعرف لك غيرها . تلك هى التى ورد ذكرها أمامى فى الأوراق .. اديب روائى يختلق الحوادث ويزور الأشخاص ...

ـ يزور ؟!

ـ أليس الامر كذلك ، أجب بنعم او بلا !

وقع المتهم فى حيرة .. وجعل يفكر هنيهة ثم قال وكأنه يخاطب نفسه :

ـ نعم ، انى كذلك ، ومع ذلك ، فانى لست كذلك ..

ـ ما هذا الجواب المعقد ! انى اطلب اليك جوابا واضحا بسيطا فى لفظ واحد . اتختلق وتزيف ؟ تلك هى التهمة التى يرميك بها المدعون

ـ انا أختلق وازيف ؟ وانا اعرف القانون . وكنت رجلا من رجال القانون ! كلا يا سيدى القاضى !..

ـ انكر المتهم التهمة . اجلس أيها المتهم ، واصغ الى اقوال المدعين

أحضروا الشاهد الاول !..

وعندئذ استوى « الحاجب » واقفا ونشر ورقة فى يده وقصف :

ـ الشاهد الأول : شهريار !

فصفرت « الزوابع » واقبلت تلقى بشهريار أمام القاضى . وتفرس القاضى فى الشاهد ثم قال :

ـ شهريار

ـ عمرك ؟ كلا هذا من شانى .. صناعتك ؟

ـ ملك

ـ فى أى مملكة ؟

ـ فى أى مملكة ؟ لم يسالنى احد قبل الساعة هذا السؤال . ولم يخطر لى على بال أن اعرف اسم هذه المملكة ؟ لست أدرى . سلوا هذا المتهم !

فالتفت القاضى الى المتهم ، فوقف :

ـ أيسألنى انا عن اسم مملكته ؟ وكيف لى أن اعرف ؟

ان كل ما اعلم عن هذا المخلوق انه ملك . ولست أدرى أين مملكته ، ولا أين موقعها من « خريطة » العالم ؟

فعاد القاضي والتفت الى الشاهد فاعتدل :

ـ انا كذلك لست أعرف الا انك ملك

فقال القاضي فى شيء من السخرية :

ـ حسبك هذا . أقسم انك لا تقول غير الحق

ـ أقسم

ـ ما اقوالك ؟

ـ اقوالى : ان هذا المتهم قد قذفنى بالباطل وافترى على كذبا وزورا واقعة لم تكن . فلقد جعلنى ديوثا ادخل على شهرزاد فأجد عندها العبد فلا اقتله ولا اشرب من دمه !

فما تمالك المتهم أن وقف وصاح :

ـ كنت تريد أن اجعل منك قاتلا سفاكا يشرب الدماء . نعم لقد اذنبت واجرمت اليك ، اذ لم أجعلك كما كنت تريد مخلوقا سخيفا !

وأراد الملك ان يحتج . ولكن القاضي هدأ من غضبه واسرع فأمر المتهم بالجلوس والصمت الى أن يحين وقت الدفاع فيتكلم كما يشاء . وأشار القاضي الى « الزوابع » فأقصت شهريار وأحضرت الشاهد الثاني قمرا . فسأله القاضي عن اسمه وصناعته ثم عن اقواله . فأجاب الوزير :

ـ أقوالى يا سيدى القاضي : ان هذا المتهم قذفنى وحط من قدرى . فلقد جعلنى أقتل نفسى من أجل امرأة ، فى الوقت الذى يخرج فيه العبد من مخدعها وينكشف لى اثمها ودنسها !

فتغير لون شهر زاد ومالت الى أذن طه تهمس :

ـ لقد أدهشتنى الساعة أن يكون ذاك كلام شهريار العظيم .. الذى كان عظيما حقا فى آخر أيامه ! ولكن ما قال هـذا الشاهـد المدعو قمر الآن أدهى وأمر !!. يا الهى ما هـذه المخلوقات ! ياله من كابوس !..

ولم يطق المتهم سكوتا فنهض صائحا :

ـ يا لخيبة أملى فيك أيها الوزير الجميل ! أنت الذى عشت تعبد مثلك الاعلى النبيل.فلما ذهب عنك ذهبت . لقدانطفأت فى قلبك شمس حياتك يا قمر ، ففيم بقاؤك ، ولكن هذا الشاهد ليس بقمر ، انماهو فرد من السوقة !

فضاق القاضى بالمتهم

ـ قلت لك اجلس ولا تنبس!..أحضروا الشاهد الثالث..

فجيء « بالجلاد » ، وبعد المقدمات المعروفة سأله القاضى عن أقواله :

ـ أقوالى يا مولاى القاضى : ان هذا المتهم قد نسب الى زورا أنى بعت سيفى الى صاحب الخان . وأنا رجل « موظف » أقدر واجبى وأعلم أن هذا السيف ليس ملكى وانما هو « عهـدة » لا يباع ولا يشرى !.

وعندئذ قام المتهم صائحا :

ـ أرجو من عدالة القاضى أن يسأل فى ذلك صـاحب الخان وهو لاشك قد حضر مع الشهود !

فالتفت القاضى الى « الزوابع » :

أحضروا الشاهد الرابع !

فما مرت ثانية حتى كان « أبو ميسور » ماثلا أمام القاضي فسأله :

ـ أأنت صاحب الخان ؟

ـ أجل ، مولاى القاضي !

ـ هل تعرف هذا الجلاد ؟

ـ كيف لا ، يامولاى القاضي ، وهو عميلي ومديني ، وأحد المدخنين !

ـ أكان قد باعك شيئا بدين عليه ؟

ـ باعني سيفه

وعندئذ صاح المتهم فرحا :

ـ فليحيا العدل ! ظهر الحق وزهق الباطل ! ألا تستحي أيها الجلاد ! ما أكذبك !

فاسكت القاضي المتهم ثم التفت الى أبي ميسور :

ـ وأنت ما أقوالك ؟

ـ أقوالي وحق رأسك أيها القاضي ! عجبا ! لست أرى لك رأسا ولا ذنبا ! ومع ذلك فهذا ليس بالامر الذى يعنيني ، وما دمت أنت القاضي فاني أشكو اليك هذا المتهم ، أين هو ؟ لايشرفني أن أراه ، هذا المتهم يزعم زورا أني أدخن القنب حتى يغيب وعيي . هذا باطل أيها القاضي ، فاني وحق رأسك كلا لا شأن لي برأسك ، فرأسك هو لك . ولست أدرى ان كان رأس انسان أو رأس حصان .. ولكنه رأس القاضي .. ولكن أين هو رأس القاضي ، عجبا ان للقاضي رأسين ؟ رأس لاشك فيه الادانة ورأس فيه البراءة ... واذا تناطح الرأسان

ـ كفي خلطا ! انك الى الساعة غائب الوعى تفوح منك رائحة القنب ! اطردوه !٠٠
ـ فليحيا العدل !٠٠
صه أيها المتهم ٠ لا أريدهنا مظاهرات ! الزم الصمت ! أيها الحاجب ! ناد بقية الشهود !٠٠٠

فقصف « الرعـد » وصـفرت « الزوابع » وطارت فى كل مكان ثم عادت تعلن أن بقية الشهود وهم « الساحر » و« زاهدة » قد هربا ولم يعثر لهما على أثر ٠ وأن شهر زاد و « العبـد » حاضران فى الجلسة بين المشاهدين ٠ وعندئذ قامت شهر زاد وأعلنت أمام القاضى والجموع نزولها عن كل حق لها ـ ان كان لها حق ـ فى مقاضاة المتهم ٠ وقام « العبد » فتبع أثر مولاته فيما أعلنت ٠ وكانت الشمس قد غابت ، فمال وجه القاضى الابيض عن المكان ، وظهر وجهه الاسود ، يملؤه « كلف » دقيق من نور متناثر ٠ وأطرق القاضى لحظة ثم قال فى صـوت أشد هدوءا وأكثر عمقا مما كان :
ـ الدفاع !

الدفـــاع

وقف المتهم لحظة مضطربا بين صمت الجموع ووجومهم ، وانتباه شهر زاد والتفات طه حسين وقد أمسك أنفاسه وأصاخ بسمعه ... ثم ارتفع صوت المتهم رويدا رويدا كأنما هو آت من مكان بعيد :

ايها القاضي العادل :

تهمة خطيرة تلك التى رمانى بها المدعون ، أو المدعيان ، اذ قد سقط من الحساب اثنان ظهر كذبهما للمحكمة ، وهرب اثنان ضجرا من طول الاجراءات فيما أرى ، وتنازل اثنان كرما ونبلا من دون ريب ، فلم يصمد فى وجهى غير ملك ووزير ! وهذا شرف عظيم !

قبل أن أبدأ دفاعي . أود أن أبدى أسفي لهذه الدعاوى التى قامها على ، أشخاص يمتون الى بسبب . انه لمن المؤلم أن أرانى منفردا بين اخوانى الادباء بهذا الموقف الذى وضعنى فيه اليوم هؤلاء الاشخاص المحترمون . وانى لأعجب كلما تذكرت أن غيرى من الادباء لم يلق من أشخاصه ما ألقى من هذا الاكرام . فها هو ذا « هيكل » لم ترفع عليه « زينب » قضية فى المحكمة « الشرعية » وهذا « العقاد » لم يقاضه « ابن الرومى » أمام المحكمة « المختلطة » . وهذا « المازنى » ترك الاموات والاشباح واخرج على مسرح كتاباته أهل بيته وذويه من الاحياء فلم يتذمر أحد منهم . فما بال أشخاصى أنا من دون بقية الخلق هم الذين

قد أساءوا الادب وثاروا وتمردوا ، كأنى يوم كتبتهم غمست قلمى فى مداد ممزوج بلعاب الجن الاخضر أو ماء الفلفل الاحمر

وبعد ، فما هى حقيقة الاتهام ؟ انى قد زورت ولفقت وقذفت اذ جعلت الملك والوزير على صورة لايرضيانها لنفسيهما ؟ انى أترك لعدالة المحكمة تقدير الجميل الذى أسديته الى هذين المخلوقين بذلك التزوير والتلفيق المزعومين • انهما قد مثلا الساعة ورأيناهما مجردين عن ذلك الثوب الذى ألبسهما اياه تلفيقى وتزويرى • ماذا رأت المحكمة منهما الآن غير ملك جاهل سفاك ووزير تافه صعلوك ! أين ذلك التفكير الذى وضعته فى رأس شهريار فارتفع قليلا عن الارض ، فلم يحفل « بعبد » شهريار الواقف خلف الاستار بقدر ماحفل بما اختفى وراء عقلها من أسرار •••!! وهذا الوزير •••

القاضى ـ (مقاطعا للدفاع) انهما قد رفضا هذه الصورة على كل حال • وهى فى نظرهما قبيحة !

الدفاع ـ (يمضى) أيها القاضى ! ليس من حق أحد أن يرفض صورة وضعها مبدع لأنها قبيحة أو مليحة ! ان للمبدع أن يظهر أشخاصه على أى وجه يريد مادام فيها حياة نابضة

القاضى ـ وهل من حق المؤلف أن يشوه الاشخاص ؟

الدفاع ـ وهل من حق الخالق أن يشوه بعض المخلوقات ؟ وهل من حقى أن أطالب خالقى بأن يغير الصورة التى وضعنى عليها ، وأن يبدل أنفى الذى لايعجبنى بأنف آخر ، وطبعى الذى يتعبنى بطبع آخر ؟

القاضى ـ ولكن رجل الفن مطالب بالكمال !

الدفاع ـ ان الكمال في الفن وفي الطبيعة هو خلق الحياة النابضة • ولا شيء غير ذلك

القاضي ـ أو يستوى عندك في الجمال : حياة نابضة كحياة المشلولين والمشوهين في أجسامهم وعقولهم ، وحياة أخرى كحياة « السبياد » الجميل الجسم ، السليم العقل ، و « هيلين» البديعة الحسن الذكية الفؤاد ؟!

الدفاع ـ سيدي القاضي ! انك تضيق على الخناق وتحاسبني حسابا عسيرا

القاضي ـ (باسما) ألست تريد قضاء « الزمن » ؟!

الدفاع ـ (يفكر مليا) نعم ، صدقت ياسيدى • ان الجمال هو كمال الكمال • هو الحياة النابضة الصحيحة المتناسقة المصفاة من عيوب النقص والتشويه ، مرت عليها الطبيعة بيد التجربة والاستاذية على مدى أحقاب الاحقاب ! ولكن •• منذا يزعم أن هذا « الجمال » في مقدورنا نحن الآدميين في كل حين! وهل هو في مقدور «الطبيعة» في كل حين ! كم مثلا من أمثلة الجمال الكامل في « الجسم والقلب والعقل معا » استطاعت الطبيعة أن تخرجه منذ آدم حتى اليوم ؟ وبأى ثمن صنعت تلك الآيات ؟ وبعد كم من التجاريب ؟ أليس الثمن ملايين الملايين من المخلوقات العادية والناقصة والمشوهة على مر الاحقاب والعصور ؟ أليس النقص والتشويه والتكرار تجاريب الطبيعة الفاشلة ؟ ان الطبيعة لتتكبد العناء هي أيضا في خلق الجمال! فهي لاتختلف كثيرا « فيدياس » ، انه كذلك قد أسقط من فتات الرخام الضائع والتماثيل الناقصة أكواما على أكوام قبل

أن يبرز من بينها آيته الفنية «بالاس» ! وما لى أفرق بين الطبيعة وفيدياس • كأن الانسان شيء مستقل عن الطبيعة ! انه جزء منها • خاضع للقانون الذى يسيرها • وذلك القانون وحده هو الكامل المنزه ، لانقص فيه ولا تقصير ، وهو الذى دبر لها وأراد هذا القصور • فاذا كان الكمال أو الجمال نادرا فى الطبيعة على قوتها وعظمتها ، فان العمل الفنى الكامل هو عند البشر أقل وأقدر

ولأتحدثن الآن عن نفسى قليلا ، وأنا بين «يدى » الزمن ، فأقول انى ما زعمت يوما ولن أزعم أنى صنعت من هؤلاء الاشخاص « المدعين » شيئا يقرب كثيرا أو قليلا من الجمال الفنى • وان كنت صنعت ذلك لما عرفت ، فان صانع الجمال لا يراه . ومن دنا من فمه الكمال أصابه الدوار ففقد شيئا من ادراكه لما يصنع ولقيمة ما يصنع ، وأصبح شأنه شأن أولئك الصوفيين الذين يقفون بأعتاب « الله » بعد صعود طويل وجهد شاق ، فيغمرهم ضباب النشوة ، فاذا هم لايرون شيئا ولا يميزون بعقولهم شيئا

ولما كنت الآن على ثقة بأنى لا أشعر بدوار ولا بضباب ، فانى ولا جدال بعيد عن قمة « الكمال » • وكل ما أزعم لك يا سيدى القاضى فى شأن عملى هذا ، أنى كنت دائما حسن النية ، سليم الطوية لا أمل السير بوسائلى الضعيفة ، صاعدا فى ذلك الطريق الوعر الطويل المؤدى الى هيكل « الجمال » العظيم ، دون أن أطمع يوما فى رؤيته ، ولو عن كثب • انما أقضى حياتى أمشى وأتعثر فى أشواك هذا السبيل الى النهاية•

وعزائي الوحيد أني أعيش في طريق « الجمال » واقضي نحبي فيه • فاذا رفق رب « الهيكل » بي ، والفاني يوما خليقـا أن يضع على قبري زهرة من حـديقته ، فذاك كل جزائي ، وغاية ما اطمع فيه ••• وأخيرا ياسيدي القاضي • لست أملك الا أن أعهد اليك باسمي وشرفي وأمري فاحكم بما ترى • وأنت اذا حكمت فانك تحكم بالحق والعـدل • ولست أخاف وجهيك • فان فيك أيها «الزمن» «سواد» الدهماء ، وفيك «نور» العلماء• وبهذا الحكم المزدوج على الاشياء لا يفلت حق من مصفاتك

□

جلس المتهم وقد خيم الصمت العميق في ذلك الليل الساجي على الجموع الساهمة • وأطرق القاضي مليا ، ثم رفع رأسه :

ـ النطق بالحكم عند الفجر•وليفرج فورا عن المتهم بالضمان الشخصي !

فقام « الحاجب » ونادى في قفصه :

ـ من يضمن المتهم ؟

فنهضت شهر زاد صائحة :

ـ أنا أضمنه وأحفظه في قصري حتى الفجر

فتحرك «القاضي» في جلال رهيب وقال ملتفتا الى شهر زاد:

ـ لاتقبل المحكمة ضمانك ، لأنها لاتأمنك عليه •

فبهتت شهر زاد ووجم الحاضرون ، ولـكن القاضي لم يطل صمته بل قال مخاطبا شهر زاد :

ـ ولأنك متهمة مثله

غضب شهرزاد

قلت وقد اتجهت الى القاضي واثقا بانه سيرضى بما أقول : فانا أكفله ان أذنت يا سـيدى • قال القاضي فى لهجة حلوة مرة فيها الحنان والسخرية معا : لو أمنتك على نفسك لأمنتك عليه ، فسقط فى يدى ، واستحييت من أن أفجأ بما فجئت به شهر زاد ، وانتظرت في الوقت نفسه أن أسـمع من توجيـه التهمة الى وأمرى بالتهيؤ للدفاع • ولكن صمت القاضي اتصل حتى قطعه صوت مخيف اضطربت له الارض وامتلأ به الجو ، وأوشك الجبل أن يتصوع منـه فرقا ورعبا وتهالك له توفيق ففارقته قواه وسقطت من يده عصاه وخر كأنه مغشى عليه ، واذا هو الحاجب يقول فى قصف الرعد كله ، الى يامولاى فأنا زعيم به حتى يتصرم الليل • ثم ثاب الهـدوء وثابت معـه الى المتهم قوته وعاد اليه رشده فسأله القاضي :

أتقبل هذا الكفيل ؟ قال مضطربا متهالـكا : على ألا يسمعنى صوته ، فانى أخشى الا أعود الى أهلى كما فارقتهم سميعا .

قال الحاجب فى صوته القاصف : لابأس عليك • قال المتهـم متهالكا متمالكا : أو بأس أشد من هذا البأس ؟•

وصعدت فى ذلك الوقت من أدنى الجبل سحابة تسعى فى هدوء ولين ، فجعلت تغمر المتهم قليـلا قليــلا وهو يضطرب اضطرابا عنيفا ويصيح صياحا شديدا يريد أن يخلص منها فلا يجد الى ذلك سبيلا ، وما هى الا لحظة قصيرة حتى أخذته من

جميع أقطاره فاذا شخصه يخفى وصوته ينقطع والسحابة تمضى مصعدة أمامها فى مثل ما أقبلت به من الهدوء والوقار

والتفت فلم أجد حولى الا شهر زاد وغلامها الاسود والا صاحبى وقد أطبق على المكان صمت ليس أقل عمقا ولا كثافة من هذا الليل الذى غمر كل شىء . على أن ألفاظ شهر زاد كانت تخترق هذا الصمت العميق كما كانت أشعة النجوم تنفذ من هذا الليل الكثيف ، وكانت شهر زاد مغضبة أشد الغضب مغيظة أحد الغيظ ، ساخطة على هذا القاضى الذى لم يكفه ان رد كفالتها فى غلظة وعنف حتى اجترأ عليها وتجاوز حقه فيها ، وزعم انها متهمة كتوفيق يجب أن تدافع عن نفسها كما دافع هو عن نفسه ، وكانت تقول فى صوتها الفضى الجميل: من هذا الذى يجرؤ على أن يتهمنى أو من هذا الذى يملك ان يقفني امام القضاء ؟ ومن هذا الذى يستطيع أن يكرهنى على ما لا أريد ، ثم ترسل فى الجو قهقهة عذبة متصلة وهى تقول : لم يبق الا ان تدافع شهرزاد عن نفسها وتقف من القضاة موقف المجرمة وهى التى اخذت الناس بالجد والعبث وعلمتهم الاتهام والدفاع . سيعلم هذا القاضى كيف أعصيه وكيف أزدريه وكيف امتنع عليه ، ثم تلفتت الى وهى تقول فى شىء من الحنق تكظمه وتخفف من حدته :

ـ ارأيت الى مشورتك يا سيدى كيف تعرضنى لما لم اتعرض له قط ؟!

قلت فى اناة وهدوء :

ـ ان شخصك الخالد يا سيدتى قد يكون بمأمن من هذا

البرد المهلك الذى لا نقوى نحن على احتماله ، فان شئت ان ترديه عنا او تحمينا منه قبل أن نأخذ فى هذا الجدال الذى اظن انه سيكون شاقا طويلا

قالت خجلة متضاحكة :

ـ لقد اصبت . ما أدرى كيف ذهب عنى هذا ، ولم تكد تلتفت الى غلامها الاسود حتى تغير من حولنا كل شىء . واذا نحن فى غرفتها الهادئة الجميلة من قصرها المسحور ، واذا هى مستلقية بين وسائدها ، واذا الخدم يسعون بين ايدينا بما يرد الينا القوة والنشاط

قالت شهرزاد :

ـ والآن يا سيدى وقد أتيح لك الامن والدفء والهدوء تستطيع فيما أظن أن تتحدث الى برأيك فى هذه الجراءة التى ما كنت لاتعرض لها لولا انى لقيتك وقبلت رايك فى أمر صاحبنا المسكين

قلت : مهلا ، أزيلى قبل كل شىء من بيننا هذه الخصومة التى تخلقينها وتجنين بها على ، فانها خليقة ان تصرفنا عما يجب من تدبير امرك . وانت تعلمين ان الزمن لا يذعن لما نريد ، وانه كثير التقلب والجموح ، يطيل الليل ان أراد ويقصره ان احب ، انما هى حركة منه يدفع بها النجوم دفعا فاذا الليل ينجلى ، أو سكون منه يمسك به النجوم فى الجو فاذا الليل ثابت مقيم . وما أدرى أراغب هو فى تعجيل القضاء فيقصر الليل أم راغب هو فى الابطاء به فيمسك أستاره أن تنكشف ويمنع ظلمته ان تزول

قالت وقد رفعت كتفيها الجميلتين واشاعت فى الغرفة ضحكة ساحرة : ما أشد ما تخاف الزمان ، وما أعظم ما تكبره ، وما أكثر ما تحسب له الحساب . هون عليك ، ان أمره أيسر مما تظن ، وأن تقلبه أدنى الى العبث منه الى الجد ، وانه يستطيع أن يتهم ، ويستطيع ان يقضى فلا يغير اتهامه شيئا ولا يحدث قضاؤه جديدا . انما هو كائن مغرور، قيل له انه قوى فظن بنفسه القوة ، وخيل اليه انه عظيم فانتحل لنفسه العظمة ، بل خيل اليه انه موجود فاثبت لنفسه الوجود

قلت وقد نهضت يظهر على وجهى الغضب ويضطرب فى قلبى الخوف :

ـ سيدتى ، ان كنت مصرة على المضى فى هذا الحديث فدعينى أنصرف فانى لا أحب مخاصمة الزمن ولا أقدر عليها. وانك لتخدعين نفسك وتكلفينها أكثر مما تطيق ، فقد قبلت الاحتكام الى هذا القاضى . اترين انك كنت لاعبة ؟ ثم ما يغضبك من اتهامه اياك وانت قد قبلت حكمه وسعيت الى مجلسه ، ومازلت تنتظرين قضاءه وتخافين فى أعماق نفسك أن يكون قاسيا على صديقنا البائس ؟

قالت فى رفق :

ـ عد الى مجلسك يا سيدى فما دفعنى الى ما تكره الا ما أجد فى نفسى من الحفيظة والموجدة . وما كنت اقدر ان أهان واتهم جزاء على ما قبلت من الاحتكام الى الزمن والرضى بقضائه بين توفيق وتلك الاشباح

قلت : بل جزاء على عبثك به واستطالتك عليه فيما كتبت الى اسيرك الذى أخذ منك وأنت كارهة

قالت : ومهما يكن من شيء فأنت أصل الخصومة التى اخذت نفسى تضيق بها على قلة ما تضيق نفسى بالاشياء

قلت : فهذا هو التجنى الذى لا أطيقه ولا ارضاه وانك لتعلمين انى ما سعيت اليك الا بعد ان دعوتنى ، وما اهتديت الى قصرك هذا الا حين دللتنى عليه ، بل حملتنى اليه حملا واختطفتنى اليه اختطافا ، أفتعقدين الامر وتخلقين المشكلات، ثم تلقين تبعة ما تفعلين على الابرياء والآمنين الذين اقبلوا يصطافون ، فنصبت لهم من الشباك والاشراك ما ورطهم فى هذه القصة المعقدة التى لا يعرفون لانفسهم منها مخرجا ؟

□

سمعت شهرزاد هذا الحديث هادئة ثم فكرت فيه مغرقة فى التفكير ، ثم رفعت رأسها الى وهى تقول : ربما كان هـذا كله حقا ، ولكن الامر مازال أيسر مما تظن ، فأنت واثق بأن القاضي سيعدل فى أمر صاحبك ، واذن فستذهب الى مجلس القضاء وستسمع الحكم ، فاذا برىء صاحبك عدت معـه آمنين الى حيث تستأنفان اصطيافكما كأن لم تلقيا شهرزاد ولم تعرفا القصر المسحور

قلت ساخرا : ما ايسر ما تقولين ذلك ، كانك تجهلين ان لقاءك فتنة وأن قصرك سحر ، وان من دنا منك لا يستطيع ان يطيل النأى عنك ، وأن من خرج من قصرك لا يستطيع أن يسلو عن الرجوع اليه ! هل لك أن تدعى هذا الدل وتعرضى

عن هذا التيه ، حتى نفرغ من هذه القصة التى طالت واشتد تعقدها ؟

قالت : صدقنى انى لابعد مما تظن عن الدل والتيه ، ولكن أكبر نفسى وانفسكم أيضا من ان أخضع لسلطان وان كان سلطان الدهر ، ومن أن أقبل اتهاما أو اتهيأ لدفاع

قلت : ومع ذلك فأنت متهمة ولابد من أن تدافعى عن نفسك

قالت : كلا ان لى عن ذلك مندوحة ، فأنت تعلم أن هناك استارا يكفى أن ترفع وأن تسدل بعد أن أجوزها واذا انا بمأمن من كل عادية لا يبلغنى شىء ولا يصل الى احد وان كان الزمان

قلت : نعم ومن وراء هذه الاستار كنت تريدين ان تلقى توفيقا

قالت : كنت أريد أن أحفظه

قلت : فانك لا تجهلين أن ما وراء هذه الاستار يسمى الموت بالقياس الينا ويسمي النسيان بالقياس اليك. أفترضين ان تسدلى أستار النسيان بينك وبين الاحياء ؟

قالت : لقد بلوت الاحياء حتى ضقت بهم ، وما أكره أن أستريح منهم دهرا ، فلينسونى ولانسهم ، وما اظن أنى سأشقى بهذا كما يشقون

قلت : ما كنت أعرف فيك هذه القسوة ، انك لتعلمين أنك عزاء الاحياء وسلوتهم ، وانك رحمة البائسين ونجاة الهالكين منهم . ومع ذلك فلن يخلى الزمن بينك وبين ما تريدين للاحياء

من هـذه الحياة الخشنة الجافة التى يملؤها الجحيم والعـذاب المقيم

قالت وقد نهضت مغضبة : الزمن أيضا ؟ فأنا اذن مثلكم امة له مذعنة لسلطانه لا استطيع منه فرارا

قلت :

ولو طار جبريل بقيـــــة عمره

قالت وهى لا تكاد تملك نفسها :

من الدهر ما اسطاع الخروج من الدهر

سخف هذى به شاعر من شعرائكم ظنه وظننتموه فلسفة ولم تعرفوا انه الهراء الذى ليس وراءه شىء . ستـــرى يا سيدى أستطيع الخروج من الدهر أم لا أستطيع . ثم دقت يدا بيد فأقبل غلام أسود فقالت له : سترعى هذا السيد حتى يفرغ صاحبه من قضيته ثم تبلغهما مأمنهما ثم تلحق بى وراء الاستار

قال الغلام : الاستار ياسيدتى ؟ انها مأخوذة علينا

قالت : من أخذها ؟

قال : جنود القاضى ، انهم يقومون دونها منذ وجه اليك ما وجه من حديث

قالت : فستنتظرنى اذن فى القصر حتى أعود

قال : تعودين من أين ياسيدتى ؟

قالت : من وراء الاستار . ألست قد زعمت أن الطريق مأخوذ عليكم ؟

قال : وعليك أيضا يا سيدتى !

هنالك ثار ثائرها فنهضت ولطمت خد العبد . واذا هو يجثو بين يديها مستغفرا ولكنها مضت امامه لا تلوى على شيء . وتبعها العبد مستخذيا خجلا . ولبثت فى هذه الغرفة مضطربا بين الحيرة والدهش والغضب ، لولا أن صاحبى أقبل يهمس فى أذنى لقد انتصف الليل . ولم أكد أسمع هذه الجملة حتى انجلت عنى غمرة هذه القصة كلها وذكرت الفندق ومن خلفت فيه ، ونهضت عجلا قلقا أسأل صاحبى ، ومن لنا بالعودة وكيف الطريق الى الفندق ؟ وماذا عسى أن يظن بنا من الظنون

ولم يكد صاحبى يهم بالجواب حتى أقبلت شهرزاد شاحبة غاضبة لا تملك نفسها من الغضب والغيظ فتلقى على صاحبى نظرة يطير لها لبه ، فيرجع أدراجه مسرعا ، ثم تتحول الى قائلة وقد تجاوز السخط بها حده :

ـ انك تفكر فى العودة الى أهلك . كلا ياسيدى ، يجب أن تعلم أنى أسيرة فى هذا القصر ، أسيرة قاضيك الذى اخترته ووثقت به ، فلتكن انت أسيرى ولن يخلى بينك وبين الحرية حتى يخلى بينى وبين النسيان !

حكم الزمان

فلما تقضى الليـــل الا أقله

وكادت توالى نجمـه تتغور

يممنا مجلس القضاء ، فكنا السابقين اليه ، ولبثنا لحظات مأخوذين يبهرنا هذا الجلال الذى لا يرقى اليه الوصف ، جلال الصمت قد امتدت ارجاؤه حتى طبقت الجو كله من حولنا ، لا تشقه الا هذه الموسيقى الضئيلة المتهالكة التى كانت تضطرب فيه اضطرابا متصلا حلوا ، فيه أمن للقلوب ولذة للنفوس ، والتى كانت تصدر عن هذه الحشرات الضئيلة المنبثة المستخفية فى ثنايا ذلك العشب الكثيف . وجلال هذه الظلمة التى كانت تزرع لكثافتها وامتدادها من كل نحو وفى كل وجه ، لا تشقها الا أشعة ضئيلة متفانية ، ملائمة لتلك الموسيقى الضئيلة المتهالكة ، كانت تصدر من هذه النجوم البعيدة التى أخذت تجد فى الهرب ، كأنما كانت تريد أن تبلغ مأمنها قبل أن يدركها ضوء الصباح . وكانت نفوسنا تجد فى أعماقها شعورا قويا بجمال حزين مغرق فى الحزن ، كأنه صورة لهذا الكون الذى كان يحيط بنا وبغيرنا ، والذى كان يأتلف من مزاجين مختلفين أشد الاختلاف ، ظلمة كثيفة قد شاع فيها صمت عميق وأصوات نحيلة تصعـــد من الارض فتلقاها فى الجو أشعة ضئيلة تهبط من السماء . ومع انا كنا قد افترقنا مختصمين أو كالمختصمين منذ ساعات قصـــار ،

فقد أحسست نفسى تدنو من نفس شهرزاد. وما أرى الا أنها كانت تجد مثل ما أجد ، واذا يدانا تلتقيان ، واذا هى تسألنى فى صوت لم يكن أقل نحولا من بعض هذه الاصوات التى كانت تضطرب فى الجو ، ما رأيك فى هذه الموسيقى ؟ أليست باهرة للعقول ساحرة للقلوب ، منسية للخطوب والاحزان ؟

وأهم أن أجيبها ، ولكن يدها اللطيفة تضغط يدى الخشنة كأنها أنكرت صوتها فهى لا تريد أن تسمع صوتى ، وكأنها تؤثر الا يأخذ الحديث بيننا طريق الالسنة والاسماع ، بل طريقا أخرى هى أيسر وأقرب ، وهى طريق النفوس حين تتحدث الى النفوس فى غير صوت مسموع أو جرس محسوس

□

وما أدرى ألبثنا كذلك وقتا طويلا أو قصيرا ، ولكنا نشعر فجأة كأنا انتزعنا فى عنف من عالم الغيب ورددنا فى قوة الى عالم الشهادة . وهذه سحابة تسعى فى وقار وأناة كأنماتنزلق على الجبل حتى اذا جازت هذا المكان الذى كنا نقيم فيه لم تقف ولم تتمهل ، وانما مضت فى طريقها منحدرة ولكنها تنحسر فى لطف وظرف عن شخص نجده ماثلا أمامنا ، فاذا تبيناه عرفناه واذا هو المتهم ، عليه معطفه وفى يده عصاه . وأنت تستطيع أن تسأله عن ليلته تلك التى قضاها ضيفا على السحاب ، فقد حدثنا عنها حديثا ظريفا طريفا شائقا رائقا ما أريد ان أسوقه اليك ، لانى أقدر حقوق الادباء فى اذاعة ما يعرض لهم من الاحداث ، وما توحى اليهم به الخطوب ، ولا

سيما فى هذه الايام التى اشتدت فيها مطالبة الادباء وأهل الفن بحماية حقوق المؤلفين . وما أظن أن صديقنا يبخل عليك بهذا الحديث فقد سمعته يتحدث الى نفسه ـ وما أكثر ما يتحدث صديقنا الى نفسه فيسمع الناس ـ بأنه خليق أن يذيع هذه القصة فى كتاب . وأخذت أشخاص مختلفة متباينة تبلغ هذا المكان ، منها ما يصعد ومنها ما يهبط ، ومنها ما يأتى عن يمين ومنها ما يأتى عن شمال ، وكل صامت لا يسمع له صوت ، وكل هادىء لا تحس له حركة . ثم يضطرب الجو ويهتز الجبل وتمتلىء النفوس مهابة ووقارا فقد قصف الحاجب العنيف بأن القاضى قد أخذ مكانه من مجلس القضاء

ثم يمتلىء الجو من حولنا بصوت رقيق رفيق يدعو شهرزاد ويتهمها بأنها أهانت القاضى باللفظ والكتابة ، ويسألها أن ترد عن نفسها هذه التهمة ان عرفت الى ذلك سبيلا

فتقف شهرزاد ولا تقول الا ألفاظا قليلة ، ولكنها قاسية بما كان يملؤها من سخرية ويترقرق فيها من مزاح ، ولله ذلك الصوت ما كان أعذبه وأجمل موقعه من القلوب حين كان يذيع فى ذلك الجو الرهيب نغماته الساحرة التى كانت تشيع فيه شيوع الكهرباء فتسحر لها النفوس ، وتسرى لها فى الاجسام رعدة لذيذة لا تعقب أذى ولا ألما

قالت شهرزاد :

ـ لا اقف هذا الموقف لادافع عن نفسى ، فلست اعرف لاحد الحق فى أن يتهمنى باثم مهما يكن . وأنا الحرية كلها ، الحرية التى تشيع النشاط فى العقول وتذيع الحياة فى القلوب وتبعث

الحرارة فى العواطف والمشاعر والاهواء . أنا الحرية الخالصة التى لا تعرف حدا ولا مدى ولا تنتهى الى غاية ولا أمد ، ولا ترجو لشيء ولا لاحد وقارا . انا الحرية الطاغية ، التى يظلم كل من يحاول أن يحد من طغيانها ، ويبغى كل من يحاول أن يكبح من جماحها ، لأن نظام الحياة ، بل نظام الكون يريدها على أنها تكون طاغية جامحة لاتذعن لقوة ولا تؤمن لسلطان ، لا أقف هذا الموقف لاتلقى اتهاما ، لانى فوق الاتهام ، ولا ألقى دفاعا لانى فوق الدفاع . وانما أقف لارد هذا القاضى الى رشاده وأعيد اليه فضلا من صوابه ، وأنعى اليه نفسه ان مضى فى غروره أو أسرف فى غلوائه ، فظن انه يقدر على الحرية ويسيطر على شهرزاد . لقد أصاب المتنبى حين قال منذ ألف سنة ...

قال توفيق مقاطعا : وانت ايضا قد أدركتك عدوى المتنبى؟

ولكنه لم يمض فى حديثه ، فقد قصف الرعد قصفة ردته الى السكوت

ومضت شهرزاد فى حديثها عن اصابة المتنبى حين قال منذ الف عام :

أتى الزمان بنوه فى شبيبته
فسرهم وأتيناه على الهرم

قالت :وكنا نحسب أن الف عام لا تعدل يوما بالقياس الى هذا القاضى . وانه يستطيع أن يهرم على مهل ويشيخ فى أناة، دون أن ينتهى الى خرف ويفارقه حلم أو يذهب عنه صواب، وكنا نظن أن آلافا وآلافا من السنين ستمضى قبل أن نحتاج

الى ان نتبهه بين حين وحين أنه أخطأ فى الحكم أو جار عن قصد السبيل . وكنت أتهيأ لاكون منه مكان تلك الفتـــاة الاعرابية التى كانت تقرع لابيها العصى تنبهه أنه جار فىالحكم أو حاد عن القصد ، ولكن قاضينا أسرع الى الهرم وأسرع الهرم اليه حتى تجاوز كل حساب ، وما كان ينبغى لى أن أجهلذلك أو اجادل نفسى فيه وأنا أرى بوادره تشيع فى أقطار الارض وتفسد على الناس حياتهم فى غير بيئة ، فاذا الحرية تضطهد ، واذا آثارها تصادر ، واذا العقل ينفى من الارض . واذا الاقلام والالسنة تخضعبألوان القهر والمراقبة والتضييق. واذا رسلى يعودون الى يائسين بائسين ، يشكون زهد الناس فيهم وفيما يحملون اليهم من ثمرات الحرية التى تذيع الخصب فى العقل والشعور . كنت أظن انها أزمة تأتى الناس من اسرافهم فى الحضارة وتعرضهم لاخطارها وأمراضها التى تعرض وتزول، فاذا هى أزمة تأتيهم من أبيهم الزمان الذى فارقه الشبـــاب وتصرمت عنه الكهولة القوية وأدركته الشيخوخة وما يتبعها من اعراض الفناء والانحلال ، الا أن أكون مخطئة وأن يكون هذا الشيخ الوقور مريضا ألم به بعض العلة ، واذن فأنا كفيلة بعيادته والقيام على تمريضه والطب لما يلح عليه من الداء .

قال القاضى فى صوته الهادىء الشائع العريض :

ـ حسبك ياشهرزاد فقد استنار القاضى

ثم دعا المتهم وسأله :

ـ الا تريد أن تزيد على ما قلت شيئا ؟

قال توفيق وهو يرتعش ارتعاشا عنيفا :

ـ لا يا سيدى ، ولكنى أتوسل اليك ألا تحملنى من تبعات شهرزاد قليلا أو كثيرا فانى أراها أسرفت كثيرا ، فليكن أسرافها على نفسها لا على

قالت شهرزاد وقد التفتت اليه ضاحكة :

ـ ويحك ! وكيف خنتنى قبل أن يصيح الديك ؟

ثم غمر المجلس صمت عميق لم يتصل الا لحظات قصار ، واذا نحن نسمع صوتا هادئا عذبا يتلو علينا الحكم ، ولكننا لا نتبين من أين يبلغنا هذا الصوت

قال الصوت : والآن وقد سمعنا ادعاء المدعين وسماع المتهم الاول ، ولاحظنا اعتزال من اعتزل وعدول من عدل عن الاتهام ، نقرر ان من حق الاديب ان ينشىء اشخاصه كما يريد هو لا كما يريدون هم ، بل ان من الحق على الاديب أن يتلقى أشخاصه كما يؤديهم اليه فنه ، لا يغير من صورهم التى تلقاهم عليها ولا يبدل ، ولو حاول ذلك لما استطاعه ولما وجد اليه سبيلا . ولمن شاء أن ينكر عليه أو على فنه هذه الصورة كلها أو بعضها ، وأن يعيب عليه فنه أو على فنه ما يكون فيها من ضعف أو نقص أو تشويه . وما ينبغى لهذه الاشخاص نفسها أن تثور بمنشئها أو تمكر به أو تكيد له أو تتألب عليه ، أو تبغى له سوءا أو تستنزل عليه عقابا . فان فعلت فهى طاغية يجب أن ترد عن طغيانها ، وباغية يجب ان تصد عن بغيها وجامحة يجب أن يكبح جماحها ، ومنشؤها وحده هو القادر على ذلك ، وسبيله اليه ترقية فنه وتجديده واصطناع الاناة والدقة والاتقان فى التصوير والتعبير جميعا . ولما كان المتهم

قد أعلن تواضعه واعترف بقصوره وسلم بأنه فى حاجة الى أن يسعى ويطيل السعى ، والى أن يجد ويمعن فى الجد لا ليبلغ الكمال ، بل ليدنو منه ، ولما كنا نقدر للمتهم تواضعه وطموحه الى الكمال واعترافه ببعد الامد أمامه . ولما كنا نحرص على أن نمنحه المعونة على ما يريد من الرقى الفنى ، فقد قضينا أولا باسقاط دعوى المدعين وتبرئة المتهم مما وجه اليه ، ثانيا بنفيه عن سالنش وعن الارض الفرنسية كلها شهرا وارساله الى سالزبورج حيث الفصل الموسيقى وحيث يستطيع أن يجد من جمال الفن ما يدنيه خطوة أو خطوتين من الكمال

☐

ثم انقطع الصوت لحظة أتاحت لتوفيق أن يدفع من صدره آهة عميقة تصور ابتهاجه بما حط عنه من ثقل وما أزيل عنه من حرج ، وما مهد له من سبب لترك سالنش وسمكها الذى لم يصطده ، الى سالزبورج وموسيقاها الرائعة الحلوة معا . ولكن الصوت يعود فيملا علينا الجو من جميع نواحيه قائلا : أما المتهمة الثانية فبعد أن سمعنا دفاعها الذى تزعم انه نعى علينا وتأديب لنا ، تقرر أن من حقها أن تستمتع بطبيعتها التى هى الحرية الخالصة ، ولكن فى غير اسراف ولا جموح ، لان الاسراف فى الحرية قتل لها واعتداء عليها . ومن حيث أنها قد تجاوزت الحد وجارت عن القصد واستطالت على السلطان ، بعد أن اطمأنت اليه ، وثارت به بعد أن اعتمدت عليه فى اقرار العدل . ومن حيث أنها بهذه السيرة تؤذى نفسها ، وتؤذى الذين يتبعونها من رسلها الخالدين واشياعها الهالكين . ومن

حيث انا نحرص على الحرية ونرفق بها من أن نخلى بينها وبين هذا الطغيان الخطر ، ومن حيث انا مع ذلك نقدر حاجة الحرية الى أن تمد لها الاسباب ولا يشتد عليها التضييق . فقد قضينا بأن يلزمها الارق المضنى الذى تعانيه الى آخر الصيف

هنا نهضت مندفعا فى شىء من العنف غير قليل قائلا فى صوت لم أملك تهدئته ولا تنظيمه ، اذن فلن تأرق وحدها ما بقيت قريبا من القصر المسحور

قال توفيق فى صوت المنكر الدهش :

ـ ما رأيت مثلك رجلا يعترف بالسلطان ثم يتحداه ويخرج عليه !

والتفتنا فاذا كل شىء قد عاد الى هيئته قبل أن ينعقد مجلس القضاء ، ظلمة مطبقة تضطرب فيها أشعة النجوم المنهزمة وصمت عميق تتردد فيه أصوات الحشرات المتغنية. وتوفيق حائر الطرف يهز رأسه عجبا ودهشا واستغرابا ، ولسانه يتردد فى فمه :

ـ حقا لا أدرى أين أنا أو ماذا يراد بى

وشهرزاد تقول فى صوتها العذب :

ـ أنت على قمة الجبل الذى طالما تمنيت أن تصعد فيه ، وطالما غرك به الغرور ، فظننت انك تستطيع أن تبلغ قمته ثم تنتهى الى حضيضه فى ساعات ، ولا يراد بك الا ما تحب لنفسك وما يحب لك الزمان من الاستماع للموسيقى فى سالزبورج

قال توفيق : ولكن كيف السبيل الي سالنش لاركب القطار؟

قالت شهرزاد : لا بأس عليك ، سنبلغك مأمنك ، وان خنتنا قبل أن يصيح الديك

وهنا أراد توفيق أن يعتذر ، ولـــكنها أخذت عليه طريق الاعتذار قائلة له : بل أنا المعتذرة اليكما ، فقد كلفتكما أهوالا وحملتكما أثقالا وضيعت عليكما شهرا من أشهر الصيف

قلت : لم تضيعى علينا شيئا ياسيدتى ، بل رفهت علينـــا وأرحتنا من سخف الحياة بما فيها من جد الامر وهزله

قالت : من يدرى ، لعلك لم تخطىء ، ولعل ما فى هـــذه القصة من سخف لا يلائم ما ألف الناس من سخف الحيـــاة الجادة والهازلة أن يسلى غيركما من الناس عن أثقال الدهر وهموم الحياة ، فما أظن أن الناس تعودوا عندكم أن يروا أديبين يعبثان بنفسهما وبالأدب .. أذيعا هذا اللهو ان شئتما فمن يدرى ، لعل اللغو خير ما فى الحياة

وأدرك شهر زاد الصباح

فسكتت عن الكلام المباح



فهرس

صفحة

صفحة



الكتاب القادم

قصة الثورة كاملة

بقلم

أنور السادات

طبعة جديدة مزدانة بالصور تحتوى على زيادات فى بعض الابواب ...

يصدر فى ٥ يونيه القادم

وكلاء مجلات دار الهلال

سوريا ولبنان : شركة فرج الله للمطبوعات ـ مركزها الرئيسي بطريق الملكي المتفرع من شارع بيكو في بيروت صندوق بريد ١٠١٢ (الأعداد ترسل بالطائرة للشركة وهي تتولى تسليمها لحضرات المشتركين)

العراق : السيد محمود حلمي ـ صاحب المكتبة العصرية ـ ببغداد

اللاذقية : السيد نخلة سكاف

جدة : السيد هاشم بن علي نحاس ـ ص.ب ٤٩٣

البحرين : السيد مؤيد احمد المؤيد ـ مكتبة المؤيد ـ البحرين

البرازيل : Dr. Michel H. Thomé,
Pateo Do Colegio Nº 3,
3º Andar — Sala 9
SAO PAULO — BRASIL.

هذا الكتاب

هـذا الكتاب الطريف الذى نقدمه بين يدى القراء فى أسلوب روائي شـائق هو الكتاب الوحيد الذى اشترك فيه الكاتبان الكبيران الدكتور طه حسين ، والاسـتاذ توفيق الحـكيم . ولكن ليست هـذه الميزة الوحيـدة لهذا الكتاب ، بل هناك الطريقة الممتعة التى عرضـا بهـا فصوله ومواقفه ، والرواية العجيبة لاحداثه وأبطاله ، وفي مقدمتهم شهر زاد بطلته الأولى . فكل الذين قرأوا شهر زاد لتوفيق الحكيم ، وفى ألف ليـلة وليلة في بغداد ، ومن قبل فى قصص الفرس لم يجدوها بارحت الشرق ، ولكنها فى هذا الكتاب سافرت الى فرنسا ، ونقلت اليها قصرها المسحور ـ نعم المسحور ـ ولولا ذلك لما وقع لطه حسين وتوفيق الحكيم فى هـذا القصر ما وقع وهما فى صيف أحد الاعوام في فرنسا مما روياه فى هذا الكتاب العجيب من كل حدث ساحر غريب

انك لتقرأ فى هذا الكتاب حكمة وفلسفة من فلسفة الحياة والايام ، وتقرأ قصة طريفة اشتركت فيها براعة كاتبين كبيرين تدعك بين الجد والفكاهة ، وبين الحقيقة والخيال حتى تنتهى من قراءته فى لذة ومتعة وأسلوب روائى ممتاز